روايات عالمية

من الشرق والغرب

الرجل الهادئ

THE QUIET AMERICAN



روايات عالمية

العدد رقم ٣٨٨

الرجل الهادئ

تأليف جراهام جرين

ترجمة كمال عصمت الشريف

الفصـــل الأول

بعد أن تناولت عشائى جلست أنتظر « بيل » فى غرفتى المطلة على شـــارع « كاتيثات » بسايجون ، فلقد واعدنى على اللقـاء فى الساعة العاشرة مساء على الأكثر ، وعندما أعلنت الساعة انتصاف الليل لم أستطع صبرا وخرجت من مسكنى الى الشارع ٠

وكان الشـارع به كثير من النساء اللواتى يرتدين «البنطلونات» ممن دفعتهن حرارة الجو الى ترك منازلهن فلقد كان الوقت فى شهر فبراير والحرارة شـــديدة مما يجعل النوم فى الفراش متعذرا ، ومر بى سائق « ريكشو » متجها الى النهر ورأيت المصابيح مضاءة حيث أفرغت الطائرات الأمريكية الجديدة ، ولم أر أثرا لبيل فى الشارع وقلت لنفسى ربما ذهب لسبب ما الى مقر البعثة الأمريكية ، وتوقعت أنه اذا كان قد فعل ذلك فلابد أنه ترك خبرا فى المطعم ، فلقـــد كان ممن يهتمون بالواجب واللياقة ، واضطررت لأن أدخـــل المطعم عنـــدما لمحت فتاة تقف فى مدخل المبنى المجـاور للمطعم ولم أكن أســتطيع رؤية وجهها بل كل ما رأيته هو « بنطلونها » الحـــريرى الأبيض والرداء « المشجر » الذى ترتديه فوقه ، وبرغم ذلك فقـــد عرفتها ، فطالما انتظرتنى هى نفسها عند عودتى الى المنزل فى مثـل هذا الوقت وهذه الساعة وقلت لها شاديا ،

ـ « فونج » انه غير موجود فردت على قائلة :

ـ انا أعلم فقد رأيتك وحدك من النافذة ٠

ـ يمكنك أن تنتظريه فى المنزل ٠ عودى فسوف يأتى حالا ٠

فردت على قائلة :

ـ سأنتظره هنا ٠

فقلت لها :

ـ يحسن ألا تنتظريه هنا فقد يقبض عليك رجال البوليس •

فتبعتنى الى المنزل ، وفى الطريق راودتنى افكار مؤلمة ولم أكن راغبا فى جرح شعورها أو ايلام نفسى ، وظللنا سائرين الى المنزل وعندما مررنا بالنسوة الجالسات فى الطريق سمعناهن يثرثرن بكلام لم افهمه فقالت :

ـ ماذا تقول تلك النسوة ؟

ـ انهن يقلن اننى قد عدت الى المنزل •

ووصلنا الى المنزل وفى الغرفة رأيت الشجرة التى أعددتها لعيد رأس السنة الصينية الجديدة قد تناثرت زهورها الصفراء وسقطت على مفاتيح آلتى الكاتبة ، فجمعت الزهور المتناثرة ، وقالت فونج :

ـ هل هناك اضطرابات فى المدينة ؟

ـ لا اعتقد ذلك فان « بيل » ممن لا يسعون الى المتاعب وهو رجل لايخلف مواعيده •

وخلعت ربطة العنق والحذاء وتمددت على السرير وأخذت فونج تغلى الماء لعمل الشاى كما كان الحال منذ ستة شهور •

وقالت فونج :

ـ لقد قال لى : انك سوف تسافر قريبا •

ـ ربما •

ـ انه يحبك جدا •

ـ انى اشكره •

ولاحظت انها قد صففت شعرها بطريقة جديدة ، فقد جعلته يسترسل على كتفيها • وتذكرت أن « بيل » كان قد نقد طريقة ترتيبها لشعرها •

وأغمضت عينى وفكرت فيها ـ انها بالنسبة لى تمثل صوت الماء وهو يغلى وارتطام فنجان الشاى بالطبق ـ انها تمثل ساعة من الليل والراحة • وقالت وكأنما تريد أن تعزينى لغيابه :

ـ انه لن يتأخر طويلا ٠

وأخذت أفكر فيما يتكلمان عنه اذا التقيا ـ فلقد كان بيل جادا أكثر من اللازم وطالما أرهقني بمحاضراته عن الشرق الأقصى الذى لم يعرفه هو الا من بضعة شهور على حين قضيت فيه سنوات طوال ٠

وكانت الديموقراطية هى الموضوع الثانى الذى يحب أن يتكلم فيه ويكثر من الكلام عما تقوم به الولايات المتحدة من أعمال ـ اما فونج فكانت ذات جهل مطبق ـ فلو فرض أن ورد اسم هتلر فى حديثنا لتدخلت وسألت ومن يكون هتلر ؟ وكان الشرح والايضاح لها صعبا فهى لم تقابل المانيا أو بولنديا فى حياتها ولم يكن لديها أية معلومات عن جغرافية أوربا ـ فى حين أنهـــا كانت تعرف عن البعض أكثر مما أعرف فهى تعرف عن الأميرة مرجريت اخت ملـكة انجلترا اكثر مما اعرف انا ـ وسمعتها تضع الصينية على طرف السرير وأنا مغمض عينى ـ فسألتها :

ـ اما زال بيل يحبك يا فونج ؟

ومددت ذراعى قائلا :

ـ هل هو ٠٠٠

فضحكت وسمعت صوت اشعال عود كبريت وقالت :

ـ يحبنى ؟

فربما لم تفهم معنى سؤالى ثم قالت لى :

ـ هل اعد لك الشراب ؟

وسرعان ما اعدت الطاولة واشعلت المصباح وانعكس ضـــوء المصباح على ملامحها التى فى لون العنبر وهى تنحنى فوق اللهب وقد ركزت اهتمامها وهى تضع الزجاجات على المائدة ٠

وقلت لها :

ـ اما زال بيل يشرب ؟

فقالت :

ـ نعم ٠

فقلت لها :

ـ يحسن بك أن تجعليه يقفل والا فلن يعود اليك .

وانشغلت هى فى اعداد المائدة ، وبلغت الساعة المثبتة بجوار سريرى الثانية عشرة والثلث واستراحت أعصابى وذهب عنى التفكير فى بيل .

وقلت لها :

ـ انت تعلمين أن بيل يعرف عنى حبى للشراب قبل أن آوى الى فراشي وهو لا يحب أن يزعجنى فى مثل هذا الوقت وأعتقد أنه سوف يأتى فى الصباح .

وناولتنى الكأس التالية وقلت لها وأنا أضطجع فى فراشى :

ـ لا تقلقى عليه فليس ثمة داع للقلق على الاطلاق .

وتناولت رشفة من الكأس وواصلت حديثى معها :

ـ عندما تركتنى وذهبت مع بيـــل كان من حسن حظى أننى شعود الشراب لكى أنسى هناك المنزل الجميـــل فى شارع أورماى .
ـ لو احببت ـ يجب عليك أن تعيشى لدى رجل لا يشرب يافونج .

فردت قائلة :

ـ لكنه وعد بأن يتزوجنى .

فقلت :

ـ هذا بالطبع موضوع آخر .

ثم قالت :

ـ هل أعد لك كأسا ثالثة ؟

ـ نعم .

وأخذت أسائل نفسى : هل يمكن أن تبيت لدى هذه الليلة لو أن بيل لم يأت ؟

وقلت لها :

ـ ان بيل لن يأتى الآن ـ أرجو أن تبقى معى .

فناولتني الكاس وهزت راسها نفيا ، وما ان تناولت عدة جرعات حتى اصبح وجودها أو عدمه ذا اهمية ضئيلة .. وقالت:

ـ لماذا لم يأت بيل ؟

ـ أنى لى أن أعرف السبب ؟

ـ هل ذهب لمقابلة الجنرال ثى ؟

ـ لا أعرف عن ذلك شيئا .

ـ لقد قال لى انه ان لم يتناول عشاءه معك فسوف يحضر اليك الى منزلك .

ـ لا تقلقى ـ فسوف يحضر .

ثم قلت بصوت عال :

ـ تمنيت لو كنت بيل .

وكان الى من قول هذا محتملا فقد ساعد الشراب على ذلك ، وقرع طارق الباب فقلت :

ـ بيل .

فقالت :

ـ لا . انه ليس هو فليست هذه بطريقة قرعه للباب .

وقرع الطارق الباب بنفاد صبر ـ فقفزت من مكانها ناقدة الصبر وهوت شجرة عيد الميلاد فتساقطت أوراقها الصفراء ثانية على آلة الكاتبة . وفتح الباب ودخل رجل وقال :

ـ مسيو فوليه .

ـ انا فولر .

ولم يكن فى عزمى النهوض من أجل احد رجال البوليس ـ وكنت استطيع ان أرى « بنطلونه » القصير الكاكى دون أن ارفع راسى وقال :

ـ انك مطلوب حالا فى ادارة البوليس .

ـ ادارة البوليس الفرنسية او الفيتنامية ؟

ـ الفرنسية .

قلت :

ـ ولماذا ؟

ـ لا أعرف .

وأشار الى فونج وقال :

ـ وانت كذلك .

ـ خاطب السيدة بلهجة أكثر أدبا . كيف عرفت أنها هنا حتى تطلبها ؟

فقال انه ينفذ الاوامر الصادرة له .

ـ سوف أذهب الى ادارة البوليس صباحا .

ـ انك مطلوب حالا .

فنهضت ولبست رباط العنق والحذاء فقد كنت أعلم ان للبوليس سلطة واسعة وهو يستطيع أن يسحب الاذن « الممنوح » لى بالتجوال ويستطيع أن يحرمنى حضور المؤتمرات الصحفية التى تعقد . بل انهم يستطيعون أن يحرمونى تاشيرة الخروج . فالبلاد فى حالة حرب . وقانونية التصرفات ليست لازمة . وكنت أعرف رجلا غاب عنه طاهيه ـ فلما ذهب يسأل عنه البوليس ـ قالوا له انهم أطلقوا سراحه ولا يعلمون عنه شيئا وكذلك كانت عائلته لا تعلم مكان وجوده منذ طلبوه فى البوليس ـ وقالو لهم : ربما انضم الى الشيوعيين . أو انضم الى احد الجيوش الخاصة بالهيئات المختلفة فى البلاد التى يكثر عددها حول سايجون مثل جيوش الهاو هاو أو الكاوديست أو جيش الجنرال ثى . وربما كان فى أحد السجون الفرنسية ـ وقد يكون سعيدا يربح الأموال من كسب النساء فى أحد الأعمال ـ وقد يكون قد أصيب بنوبة قلبية فى أثناء استجوابه ومات .

وقلت لرجل البوليس :

ـ اننى لن اذهب ماشيا يجب أن تستأجر لى عربة ريكشـــو ، فمن الواجب ان يحافظ الانسان على كرامته .

ولهذا السبب رفضت أن أتناول سيجارة من الضابط الفرنسى فى ادارة البوليس وانا أستطيع ان اتخذ قرارا سريعا بسهولة بدون أن اغفل عن معنى الأسئلة التى توجه الى ـ وسألت نفسى : ماذا يريدونه منى؟ فلقد قابلت فيجو مفتش البوليس قبل ذلك فى عدة حفلات ـ وقد لاحظت انه يحب زوجته التى تتجاهله ـ وهى سيدة براقة المظهر شقراء الشعر ـ وفى ادارة البوليس رأيته جالسا خلف مكتبه وقد ظهر عليه التعب والانهاك وسط دخان السجائر والحرارة الشديدة وقد ارتدى « غطاء » فوق عينيه أخضر اللون ليحمى نظره من الضوء وأمامه على المكتب كتاب للكاتب الفرنسى « باسكال » يقطع الوقت بقراءته ـ وقد منعته من استجواب فونج الا فى حضورى فوافق على الفور دون معارضة وهو يتنهد بشكل يمثل ضيقه وتبرمه بالمقام فى سايجون وشدة الحرارة وباحوال البشر كافة وقال لى بالانجليزية:

ـ اننى آسف اذ طلبت منك المجىء •

فقلت انه لم يؤخذ رأيى فى ذلك بل أمرنى بالحضور ..

فقال :

ـ ان العيب فى ذلك يرجع الى جهل رجال البوليس من أبناء البلاد •

وكان يتكلم وعيناه على صفحة الكتاب وقد تاه فى المناقشات التى يحويها . ثم قـال :

ـ اننى اريد ان اسالك بعض الأسئلة عن بيل •

ـ يحسن بك أن توجه هذه الأسئلة الى بيل نفسه •

ثم أخذ مفتش البوليس يسأل الفتاة :

ـ منذ متى تعيشين مع مسيو بيل ؟

ـ من حوالى شهر ـ لا أعرف بالتاكيد •

ـ كم أعطاك نظير اقامتك معه •

فقلت له :

ـ ليس لك الحق فى أن تسالها هذا السؤال • فانها ليست سلعة للبيع •

فقال :

ـ لقد كانت تعيش معك ـ اليس كذلك ـ لمدة سنتين •

فقلت :

ـ اننى مراسل صحفى مفروض فى أن أتتبع اخبـــار حربكم وليس لك أن تسألنى عن نظامكم المحلى •

فقال :

ـ ماذا تعرف عن بيل ؟ ارجو أن تجيب عن أسئلتى يامسيو فولر • أننى لا أحب أن أوجه هذه الأسئلة ـ ولكن الأمر « خطير »
ـ أرجو ان تصدقنى أن الأمر فى غاية الخطورة •

فقلت :

ـ اننى لست واشيا • كل ما أستطيع أن أقوله لك عن بيـــل ان سنه اثنتان وثلاثون سنة ـ ويعمل فى بعثة المساعدة الاقتصادية وجنسيته أمريكى •

فقال :

ـ انك تبدو كصديق له •

وكان ينظر الى فونج ودخل احد رجال البوليس الوطنيين يحمل ثلاثة أقداح من القهوة وقال فيجو :

ـ أوتحب أن تشرب الشاى ؟

فلم ارد عليه • وقلت :

ـ اننى صديق لبيل ولماذا لا اكون ؟ ـ فسوف اعود الى وطنى يوما ما ـ أليس كذلك ؟ • اننى لن أستطيع أن آخذها معى وسوف

تكون سعيدة معه • فان هذا ترتيب معقول وسوف يتزوجها ـ فلقد قال لها ذلك ـ وهو كشخص لا بأس به فهو جاد ، وليس أحد هؤلاء المزعجين الذين يقيمون فى فندق الكونتننتال انه « امريكى هادىء »

وبدا عليه انه ينظر الى كلمات على مكتبه توضح ما عناه بسؤاله، وقلت :

ـ نعم • انه أمريكى هادىء جدا •

وجلس فى مكتبه الشديد الحرارة ينتظر من أحدنا أن يتكلم•• ودخلت ناموسة وهى تطن متاهبة للهجوم ، وأخذت الاحظ فونج، وبدا عليها أنها لم تفهم ما عناه فيجو لأن معرفتها بالانجليزية كانت سيئة ـ وكانت جالسة فوق مقعدها الخشبى فى مكتب البوليس وهى لا تزال تؤمل لقاء بيل ـ ورأيت ان فيجو قد سره ذلك وسألنى :

ـ كيف عرفته أول مرة ؟

وسألت نفسى : لماذا أشرح له ان بيل هو الذى عرفنى اولا • فلقد رأيته فى سبتمبر الماضى قادما عبر الميدان قاصدا « بار » الكونتننتال ـ وشاهدت شابا غير مألوف ينظر الينا بسرعة وكان بساقيه الطويلتين وشعره القصير ونظرته الصافية يبدو انه غير قادر على الايذاء وكانت المناضد المنصوبة على الطريق كلها مشغولة وتقدم منا وسألنى :

ـ هل تسمح لى بالجلوس معكم ؟•

ثم قال بأدب :

ـ ان اسمى بيل ، وأنا حديث العهد بالمدينة ••

وجلس فى كرسى وطلب زجاجة بيرة • ثم نظر بسرعة حين دوى صوت انفجار وقال بلهفة وأمل :

ـ هل هذا صوت قنبلة يدوية ؟

وقلت وأنا آسف لخيبة أمله :

ـ أكثر ظنى انه صوت عادم احدى السيارات •

ولم يكن صوت القنابل اليدوية يثير اهتمامى لكثرتها بل كنت

أسعى الى ما يمكن أن يسمى بالأخبار الحقيقية وفى الشارع ظهرت النســـاء الوطنيات وقد ارتدين السراويل الحريرية البيضـــاء ، ، والسترات المشجرة ، المحبوكة ذات الألوان الزاهية المشقوقة من الجانب ، وأخذت أراقبهن وانا افكر فى أننى سوف أفتقد منظرهن عندما أترك هذه البلاد •

وقال بيل :

ـ انهن جميلات أليس كذلك ؟

وتظرت اليه من أعلى كاس البيرة التى أشربها ورددت قائلا بغير اهتمام :

ـ آه • طبعا •

فلقد كان من النوع الجاد • ثم قال :

ـ ان الوزير المفوض مهتم كثيرا بانفجارات القنابل اليدويه ـ فلو أصيب أحد منا فان ذلك يكون مخيفا •

فقلت :

ـ أصيب أحد منكم ؟

فقال :

ـ نعم • انى أرى أن ذلك يكون خطرا ـ فان الكونجرس الامريكى لن يحب ذلك •

وسألت نفسى : لماذا يحب الانسان أن يضايق السذج فربمـا كان هذا الشخص منذ عشرة أيام فحسب يسير فى شوارع بوستن وذراعاه مملوءتان بالكتب التى قرأها عن الشرق الأقصى ومشـاكل الصين • ولكنه لم يظهر عليه أنه سمع ما قلت فلقد كان مشـغولا بمشاكل الديمقراطية ومسئوليات الغرب ، وبدا عليه أنه كان قد عقد عزمه أن يكون مخلصا لا لفرد معين ولكن الى دولة • الى قارة • الى عالم •• حسـنا هذا هو العالم كله فليحاول أن يصلح ما فيـه من أخطاء •

وسألت فيجو :

ـ هل هو فى المشرحة ؟

فسألني :

ـ وكيف عرفت أنه مات ؟

وكان سؤالا سخيفا غير جدير برجل يقرأ « باسكال » وسخيفا كذلك من رجل يحب زوجته بشكل غريب فأنت لا تستطيع أن تحب بغير خيال .

وقلت :

ـ انني غير مذنب .

كما قلت لنفسي : ان ذلك صدق . ألم يكن بيل يرسم دائما طريقه بنفســـه وبحثت في أعماق نفسي عن أي شـعور حتى أمام شـكوك رجل بوليس فلم أجد شيئا ، ونظرت بجد الى فـونج فان الخبر سيكون صعبا عليها ، فلا بد أنها أحبته بطريقتها . ألم تكن تهواني ثم تركتني وذهبت الى بيل ، لقد ربطت نفسها بالشـــباب والأمل والطموح ، ولكن الشباب والأمل والطموح قد خيبت ظنهـا أكثر من التقدم في السن واليأس ـ وجلست في مكانها وهي تنظر الينا ، وظننت أنها لم تفهم بعد أنه قد مات . وسوف تكون فـكرة صائبة لو استطعت أن أبعدها قبل أن تدرك الحقيقة . وكنت مستعدا أن أجيب عن كل الأسئلة لو استطعت أن أنهي المقابلة بسرعة لـكي أتمكن من أن أقول لها الحقيقة فيما بيننا وبعيدا عن نظرة رجـــل البوليس وكراسي مكتبه الخشنة والمصباح العاري الذي أحاط به الناموس وقلت لفيجو :

ـ ما هو الوقت الذي يهمك أن تعرف فيه تحركاتي ؟

قال :

ـ مابين السادسة والعاشرة .

ـ انني متعود تناول مشروب في السادسة «بلوكاندة» الكونتننتال والسقاة يعرفونني .

وفي الساعة السادسة وخمس وأربعين دقيقـة تمشيت على رصيف الميـنـــاء لأرى الطائرات الأمريكية وهم يفرغونها ، ورأيت ويلكنز من وكالة الأنباء المتحدة واقفا على باب فندق ماجستيك .

ثم دخلت السينما المجاورة ، ومن السينما توجهت الى مطعم الطاحونة وأعتقد أنى وصلت الى هناك فى الثامنة والنصف وتناولت عشائى بمفردي وكان هناك « جرانجر » وتستطيع أن تسأله - ثم اخذت عربة الى المنزل فى العاشرة الا الربع وتستطيع أن تعثر على السائق حيث انى كنت أنتظر بيل فى العاشرة ولكنه لم يحضر .

- ولماذا كنت تنتظره ؟

- لقد خاطبنى تليفونيا . وقال انه يريد ان يرانى لأمر هام .

- هل لديك فكرة عن هذا الأمر ؟

- لا . ان كل شيء كان مهما بالنسبة لبيل .

- وهذه الفتاة التى تحبه هل تعرف أين كانت ؟

- كانت تنتظره فى الخارج عند منتصف الليل . - وكان يبدو عليهـا انها مشغولة انها لاتعرف شيئا - لماذا ؟ - الا ترى انهـا مازالت تؤمل رؤيته ؟

- بلى .

- وهل تعتقد انتى قتلته بسبب الغيرة ، او انها قتلته لأى سبب ؟ انه كان سيتزوجها .

قال :

- نعم .

ومرت فترة من الصمت ثم سألته :

- أين وجدتموه ؟

فقال :

- أسفل « الكوبرى » - غريقا فى الماء .

وكان مطعم الطاحونة مجاورا « للكوبرى » ، وعلى « الكوبرى » بوليس مسلح وكان للمطعم غطاء من الحديد المشبك لكى يمنع دخول القنابل اليدوية ولم يكن عبور « الكوبرى » مأمونا فى الليل . ان الشاطىء الآخر يكون تحت سيطرة الفيتناميين بعد حلول الظلام ، ولا بد أنى تناولت عشائى على بعد خمسين ياردة من جثته .

وقلت :

ـ ان المشكلة هي أنه أقحم نفسه في المتاعب •
وقال فيجو :
ـ بصراحة ، انني لست آسفا على موته ، فلقد كان يتسبب في أضرار كثيرة •
فقلت :
ـ فليحفظنا الله دائما من السذج •
قال :
ـ نعم •
ـ الا تستطيع ان ترى طريقته وعلى كل فقد كان امريكيا عجيبا •
ـ هل يمكن أن تتعرف عليه ؟ • انى لآسف • ولكن « الروتين » ـ وان كان روتينا غير محبب •
ولم اهتم بسؤاله : لماذا لم يطلب أحد موظفى المفوضية الامريكية ؟ لانى أعرف السبب فان للفرنسيين وسائل عتيقة بالنسبة للمقاييس عندنا ، فهم يؤمنون بالشعور بالذنب ـ وان المجرم يجب أن يواجه بجريمته فقد يؤدى ذلك الى انهياره و « اكتشاف » أمره •
وقلت لنفسى مرة أخرى : اننى برىء •

ومضى فيجو الى « البدروم » حيث توجد المشرحة وصوت الموتور للتبريد يعمل ـ وسحبوه من مكانه كما يسحب الانسان « صينية » من مكعبات الثلج ونظرت اليه ـ وكانت الجروح متجمدة ـ وقلت لفيجو :
ـ الا ترى أن الجروح لم تتفتح في حضورى ؟ لقد بالغتم في « تثليجه » ـ ان البشر لم يكن لديهم ثلاجات في العصور الوسطى •
ـ هل تعرفت عليه ؟
ـ آه • نعم •
وكان أصلح له لو بقى في وطنه ، فلقد رأيته في صورة عائلية يمتطى جوادا في مزرعة كما رأيته في صورة يستحم في

احد الشواطىء فى الولايات المتحدة ، ورأيت صورة ثالثة له فى احد الادوار العليا فى مبانى نيويورك ». انه كان يسكن فى احدى ناطحات السحاب ويمارس المصارعة السريعة ويقوم بتناول الايس كريم وشرب كؤوس المارتينى — وتناول اللبن عند الغداء « وسندوتشات » الدجاج ».

وقال فيجو :

— انه لم يمت بسبب هذا « وهو يشير الى الجرح فى صدره »

— انكم تعملون بسرعة ».

— يجب علينا ذلك فى مثل هذا الجو ».

واعادوا الطاولة المدد عليها الى مكانها واغلقوا الباب . وقال فيجو :

— الا تستطيع ان تساعدنا ؟ ».

— نعم لا استطيع .

وعدت مع فونج ماشيا الى مسكنى ، وكانت فونج لا تزال فى مدركة لما حدث ولم يكن لدى طريقة لاخبارها بما حدث برفق وعلى مهل .

وكنت مراسلا صحفيا واخذت افكر بعقل الصحفى :

« موظف امريكى يقتل فى سايجون » واخذت افكر فى الصحيفة التى اعمل بها وقلت لفونج :

— هل تنتظرين بانتظارى عند مكتب التلغراف ؟ ».

وتركتها وارسلت التلغراف وعدت اليها وكنت اعلم ان الصحفيين الفرنسيين لابد أن يكونوا قد علموا بالحادث ولو ان فيجو كان منصفا لاوقف الرقيب يرقبنى حتى يرسل الفرنسيون برسالاتهم — وبرغم أن بيل لم يكن مهما — فانه قبل موته كان مسئولا — على الاقل — عن موت خمسين فردا وكان من الخطأ ان تترك الرقيبة عطولة تبين نشاطه لان ذلك سوف يؤدى الى سوء العلاقات الانجلو امريكية . فسوف يتألم الوزير المفوض الامريكى

الذى كان يقدر بيل لانه حاصل على درجة عالية فى احدى الموضوعات التى يمكن أن يحصل الأمريكيين على درجات فيها وربما كانت فى العلاقات العامة أو فى الدراسات الخاصة بالشرق الاقصى . فلقد قرا كثيرا من الكتب . وسألتنى فونج :

ــ اين بيل ؟ . ماذا يريد منا البوليس ؟ ».

فقلت لها :

ــ تعالى الى المنزل ».

اقالت :

ــ هل سيأتى بيل ؟ ».

فقلت :

ــ ان احتمال حضوره الينا مثل احتمال ذهابه الى مكان آخر .

وكانت النسوة العجائز مازلن يثرثرن على الشاطىء فى الجو الذى اعتدل بعد حرارة النهار . وعندما فتحت بابى عرفت أن غرفتى قد فتشت . فان كل شيء كان مرتبا أحسن مما تركته .

وقالت فونج :

ــ هل أعد لك الشراب ؟.

ــ نعم .

وخلعت رباط العنق والحـذاء ، فان الصراع قد انتهى ، وجلست فونج القرفصاء عند طرف السرير وأشعلت المصباح ولون جلدها فى لون العنبر . وقلت لها بالفرنسية :

ــ لقد مات يا فونج .

فامسكت بالكأس فى يدها ونظرت الى وهى تحاول أن تركز فهمها كطفل وقد قطبت بين حاجبيها قائلة :

ــ هل مات ؟ .

فقلت :

ــ ان بيل قد مات . لقد قتل ».

فوضعت الابرة من يدها وجلست على مقعدها ونظرت الى .
ولم يكن هناك شعور او دموع بل تفكير فحسب .

وقلت :

ـ يحسن بك ان تبقى الليل هنا .

فأطرقت براسها ، وفى هذه الليلة استيقظت من نومى العميق وكانت نائمة وكان من الصعب أن أسمع صوت تنفسها . وهكذا بعد شهور طوال لم اعد وحدى ـ ثم فكرت وقد اعترانى الغضب من فيجو ونظارته الخضراء فى مكتب البوليس وممرات المفوضية الأمريكية وسألت نفسى : « هل انا الوحيد الذى يهتم حقيقة باس بيل ؟ » .

الفصل الثانى

فى اليوم الأول الذى رأيت فيه بيل يعبر الميدان متوجها الى الكونتننتال كان هنـاك عديد من زملائى الصـحفيين الأمريكيين ـ وكانوا خليطا من الشباب متوسطى العمر فيهم من تغلب عليـه سمات الطفولة وفيهم المرجون وفيهم ضخام الأجسام وصغارها ـ وكانوا جميعا يطلقون النكات اللاذعة على الفرنسيين الذين كانوا يخوضون الحرب .

فبعد كل اشتباك بين قوات الطرفين وبعد ازالة المصابين فى المعركة كان الفرنسيون يدعونهم الى هانوى التى تبعد عن سايجون مسافة اربع ساعات بالطائرة لكى يخاطبهم القائد العـام الفرنسى مقدما لهم النتائج والأخبار ـ ويقيمـون ليلة فى معسـكر أعد للصحفيين ـ ثم تأخذهم السلطات العسكرية فى طائرات تطير بهم على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق ميدان المعركة وهذا الارتفاع هو أقصى مدى للمدافع الرشاشة . ثم تعود بهم الطائرات الى سايجون حيث يقيمون فى فندق الكونتننتال .

وكان بيل هادئا ويبدو متواضعا ـ وفى أول يوم قابلته كنت اضطر ان أميــل ناحيته لكى أستطيع أن أســـمع ما يقول وكان فى منتهى الجد ـ فكم من المرات رأيته ينطوى على نفسه كلما ترامى الينا صوت الصحفيين الامريكيين المزعج وهم يتحاورون فى الشرفة وهى الشرفة التى كان يظن أنها بعيـدة عن مدى القنابل اليدوية ولكنى لم أسمعه ينتقد أحدا .

وسألنى مرة :

ـ هل قرأت شيئا للكاتب « يورك هاردنج ؟ » .

ـ لا .. لا اظن انى قرات له شيئا . فى اى موضوع يكتب ؟ »
فحدق بالنظر الى محل للألبان عبر الشارع وقال وكأنه يحلم :
ـ ان هذا المحل يصلح كمحل جميل لبيع ماء الصودا .

وتعجبت .. اى نوع عميق من الحنـــين للوطن يكمن وراء اختياره الغريب لملاحظة منظر غير مألوف ليذكره بالوطن ؟ ولــكن الم الاحظ انا فى اثناء سيرى فى الشارع لاول مرة فى سايجون ذلك المحل الذى يبيع الروائح العطرية ويذكرنى بوطنى وعزيت نفسى وقتئذ بأن أوربا لا تبعد عنى سوى ثلاثين ساعة بالطائرة ؟ »
ونظر بيل بعيدا عن محل اللبن وقال :

ـ ان بورك كتب كتابا اسمه « تقدم الصين الشيوعية » وانه لكتاب عميق جدا .

ـ انا لم اقراه .. هل تعرف بورك ؟ »
فهز رأسه بتؤدة وقال :
ـ نعم ..

وظل صامتا ولكنه قطع صمته بعد قليل لكى يغير التأثير الذى مناه :

ـ اننى لا أعرفه جيدا . واعتقد انى قابلته مرتين .
وقد ارتحت اليه لذلك حيث أنه لم يتخذ من معرفته للكاتب مادة يفخر بها .

وعلمت فيما بعد أنه يكن احتراما كبيرا للكاتب الذى يتنــاول الموضوعات الجدية وفى رأيه ان الموضوعات الجدية لا تشمل كتب القصص او الشعر أو كتابة المسرحيات ما لم تكن هــذه تتنــاول أفكارا معاصرة تشغل الأذهان فى العالم . وقلت له :

ـ انت تعلم .. انك لو عشت فى مكان مدة طويلة فانك لا تهتم بقراءة ما كتب عنه .

قال :

ـ انى بالطبع احب أن أعرف ماذا يقول الرجل الذى يعيش فى دوامة الاحداث .

فقلت له :

ـ ثم تعود فتقارن ما يقول بكتابات يورك .

وقال وكأنما لاحظ تهكمي :

ـ نعم ...

ولكنه اضاف بطريقته المهذبة :

ـ انى اعتبرها منة كبيرة منك لو كان لديك الوقت لكي تعطيني صورة عن النقط الهامة ، فانت تعلم أن يورك كان مقيما هنا منذ سنتين .

واحببت فيه اخلاصه ليورك مهما كان يورك هذا . فلقد كان يل صورة مغايرة للمحيطين بى من رجال الصحافة وافتقارهم الذى ينم عن البعد عن النضوج .

ثم بدات اشرح له الموقف فى الشمال ـ فى تونكين ـ حيث كان الفرنسيون فى تلك الايام يتشبثون بدلتا النهر الأحمر التى تشمل هانوى والميناء الشمالى الوحيد فى الهند الصينية ، حيث ينمو معظم الأرز وعندما ينضج تبتدىء « عادة » المعركة السنوية .. وقلت :

ـ هذا هو الشمال ، وقد يستطيع الفرنسيون البقاء فيه ، وذلك ما لم تتقدم الصين لمساعدة الفيتناميين ـ وانهاء حرب الغابات والجبال والمستنقعات ومزارع الارز حيث تخوض الماء الى كتفيك ويختفى الاعداء « ببساطة » ويدفنون أسلحتهم ويرتدون ملابس الفلاحين ـ وتستطيع أن تسميها حربا نظامية .

فقال :

ـ وكيف الحال هنا فى الجنوب ؟ .

فقلت :

ـ ان الفرنسيون يسيطرون على الطرق حتى الساعة السابعة مساء ، ثم يسيطرون على ابراج المراقبة بعد ذلك ، وكذلك بالنسبة للمدن الى حد ما وليس معنى ذلك انك فى امان والا فلماذا وضعوا الشباك الحديدية امام المطاعم .

وقد شرحت هذا مرات للقادمين الجدد للمدينة من اعضاء البرلمان والوزير البريطانى الجديد ثم قلت :

ـ والآن ... هناك الجنرال تى الذى كان رئيسا لأركان حرب جيش الكاوديست ولكنه التجا الى الغابات ليحارب « الفرنسيين والشيوعيين » .

فقال بيل :

ـ أن يورك كتب يقول ؟

« ان ما يحتاج اليه الشرق الاقصى هو قوة ثالثة » . وكان من المتوقع ان أسمع منه هذه الآراء المتطرفة ، والميل الى سحر ما يذكى مثل الطابور الخامس والقوة الثالثة واليوم السابع ، وكان فى استطاعتى ان اوفر على نفسى وعلينا جميعا الكثير من المتاعب وعلى الأخص بالنسبة لبيل لو كنت قد كشفت عن اتجاهات عقله غير الناضج ـ ولكنى تركته بهذه الحقائق العارية ـ وذهبت اتمشى فى شارع الكاتينات « كعادتى » فيجب أن يتعلم هو نفسه حقيقة الأوضاع فى البلاد التى تسيطر على المقيم فيها مثلما تسيطر على عقله رائحة شىء ما ، فحقول الأرز الذهبية تحت أشعة الشمس الغاربة واكواب الشاى على منضدة كاهن عجوز وسريره تعلوه نتيجة يومية ، واوعيته وآنيته المحطمة وخبرة حياة طويلة ومنظر القبعات التى ترتديها الفتيات اللواتى يصلحن الطريق الذى انفجر فيه أحد الألغام ، وأزياء الجنوب الذهبية والخضراء الزاهية وفى الشمال حيث تجد الألوان البنية القاتمة والملابس السوداء والجبال التى تقوم كدائرة حول الشمال . كل ذلك مناظر تترك فى النفس اثرها .

وعندما وصلت الى سايجون كنت أحسب الأيام التى تمر على فيها ، مثلى مثل الطالب عندما يعبر أيام الدراسة انتظارا للأجازة وكنت أعتقد أننى مرتبط بلندن المكان الذى ولدت وعشت فيه . اما الآن فما عدت اهتم بل اصبحت مرتبطا ارتباطا أشد بأبناء هذه البلاد وأحوال أهلها وفونج ومسكنى ودرت حول منزل المندوب السامى الفرنسى حيث يقف رجال الفرقة الاجنبية يحرسونها فى

حلاتهم البيضاء وشاراتهم الحمراء وعبرت الشارع امام الكاتدرائية وعدت متخذا طريقي بجوار دار البوليس الفيتنامية وكان هـذا جزءا من الوطن الثاني ـ وكانت الصحف المطبوعة حديثا قد عرضت على المناضد على طول الشاطىء والبحارة يتناولون البيرة على الرصيف وهم بذلك يكونون هدفا سهلا للقنابل اليدوية وفكرت في فونج التي تكون مشغولة في مثل هذه الساعة بالمساومة على ثمن السمك في الشارع الثالث على اليسار قبل ذهابها الى محل الالبان ونسيت بيل بسهولة . ولم اذكر حتى اسمه لفونج ونحن جالسان للغداء في غرفتي المطلة على شارع كاتينات وهي ترتدي خير ملابسها احتفالا بذكرى مرور سنتين على تعارفنا .

وفي صبيحة موته لم يذكره احدنا عندما استيقظنا من النوم ، ولقد استيقظت فونج قبلي واعدت الشاي ، والمرء لا تعتريه الغيرة من الموتى وسهل على بذلك أن أعاود الحياة معها كما كنا قبلا وسالت فونج بصوت حاولت ان اجعله طبيعيا ونحن نفطر :

ـ هل ستبقين هنا الليلة ؟ .

ـ انى سوف أكون في حاجة الى احضار حقيبة ملابسي .

ـ لقد يكون البوليس في انتظارك هناك عند بيل . ويحسن أن آتي معك .

وكان هـذا اول مرة يرد فيها ذكر بيل .

وكان بيل يسكن شقة في « فيللا » حديثة بشارع «ديورانتين» تقوم على أحد الشوارع الرئيسية التي يشغلها الفرنسيون ويطلقون عليها أسماء قوادهم . وقد غيروا اسم شارع ديجول باسم شارع ليكليرك بعد الانقلاب الثالث في فرنسا وقد يغيرون هذا الشارع مرة اخرى باسم دي لاترتاسيني . ولاحظت انه يوجد رجل بوليس يواجه « الرصيف » كل عشرين ياردة على طول الطريق المؤدي الى بيت المندوب السامي فلابد ان هناك شخصا ذا اهمية سوف يصل من اوروبا بالطائرة وامام منزل بيل كان هناك عديد من رجال البوليس وراكبي الموتوسيكلات وقد اوقفني احد رجال البوليس من اهل فيتنام وفحص بطاقتي الصحفية ولم يسمح لفونج بالدخول

فدخلت وذهبت الى ضابط البوليس ، وفى حجرة بيلْ وجدت فيجو يغسل يديه بصابونة ويمسح يديه فى « فوطته » وكانت حلته قد لوثتها بقعة من الزيت اعتقد أنه من زيت بيلْ ، وسألته :

ـ هلْ من اخبار ؟ ..

ـ وجدنا سيارته فى الجاراج ـ وكانت خالية من الوقود ـ فلابد انه خرج واستأجر عربة ، او فى سيارة شخص آخر ، وقد يكون الوقود قد افرغ من السيارة .

ـ قد يكون ذهب سائرا على قدميه .. انت تعرف هؤلاء الامريكيين ..

فقال وهو يفكر :

ـ ان سيارتك قد احرقت ... اليس كذلك ؟ وليس لديك سيارة جديدة ..

ـ نعم ..

ـ انها ملاحظة غير هامة .

ـ أبدا .

ـ هل لديك اية فكرة ..

فقلت له :

ـ كثير من الأفكار ..

ـ اذكرلى .

ـ حسنا وقد يكون قد قتل « بواسطة » رجال الكاوديستح لأنه يعرف الجنرال ثى .

ـ هل يعرفه ؟ ـ

ـ انهم يقولون ذلك ـ وقد يكون الجنرالْ ثى قد قتله لانه

يعرف الكاودبستت وقد يكون قد قتله الهاوهاو لأنه غازل عشيقات الجنرال ـ او قد يكون قد اقتله شخص يريد الاستيلاء على نقوده .»
فقال فيجو :

ـ وقد يكون لسبب « بسيط » وهو الغيرة ».
فقلت متابعا :

ـ وقد يكون قد قتله رجال البوليس الفرنسى لانهم لا يحبون الاتصـــالات التى يقوم بها . هل تبحث حقيقة عن الرجال الذين قتلوه ؟ .

فقال :

ـ لا .. اننى فحسب أدون مذكرة وهذا كلّ ما فى الأمر ؛ لأن المسألة من أفعال الحب ، وهناك آلاف يقتلون كلّ سنة .»
قلت :

ـ تستطيع أن تستبعدنى ، فانا لم اشترك فى قتله ، لم أشترك قط ، فانا بطبيعتى سلبى ، وحيث ان الاحوال الانسانية على ما هى عليه فندعهم يتصارعون أو يحبون او يقتلون فانا لا اندمج فى هذا المعترك .

وزملائى من الصحفيين يسمون انفسهم مراسلين ولكنى افضل لقب محرر صحفى فانا اكتب ما أراه ولا اتخذ أية حركة .»
وقال فيجو :
ـ ماذا تفعل هنا ؟ .
ـ لقد جئت من اجل حاجات فونج ، ورجالك لم يسمحوا لها بالدخول .
ـ دعنا نذهب لنبحث عنها .
ـ ان هذا جميل منك يا فيجو .»

وكانت شقة بيل محتوية على غرفتين ومطبخ وحمام ـ وتوجهنا الى حجـرة النوم وكنت اعـرف اين تضـع فونج حقيبتها تحت السرير ـ وسـحبناها معا وكانت تحتـوى على « البـومات » صـورها ـ واخـذت ملابسها القليلة من « الدولاب » : روبين

وبنطلون ـ والمرء يشعر بأن هذه الملابس لا تنتمى الى هذا المكان وانها لم تمكث فيه سوى ساعات ، وفى أحد الأدراج وجدت سراويلها الثلاثة ومجموعتها من الايشاربات .وكانت الملابس كلها قليلة لا تزيد على ما يحمله المرء فى عطلة الاسبوع ـ وفى غرفة الجلوس كانت هناك صورة لها مع بيل ـ والصورة مأخوذة فى حديقة النباتات بجوار تمثال حجرى كبير لتنين ـ وكانت تمسك فى الصورة بحبل متصل بكلب بيل وهو كلب اسود ذو لسان قاتم ـ ووضعت الصورة فى الحقيبة وسألت :

ـ ماذا حدث للكلب ؟ .

ـ انه ليس هنا . ربما أخذه معه .

ـ قد يعود الكلب وتستطيع تحليل ما على اقدامه من التربة . فقال :

ـ انثى لست بوليسا سريا حاذقا .

وتوجهت ناحية مكتبة بيل وتصفحت الكتب التى بها . ووجدت الكتب التالية : «تقدم الصين الشيوعية» ، «تحدى الديمقراطية» ، « مسئولية الغرب » . وهذه الكتب كما أعتقد هى مؤلفات « بورك هاردنج » والى جانب ذلك عديد من نشرات الكونجرس وكتاب لتعلم اللغة الفيتنامية وتاريخ الحرب فى الفلبين ومؤلفات شكسبير وتساءلت : « اى شيء كان يقرأ بيل لاراحة اعصابه الى جانب هذه المؤلفات الجامدة ؟ » .

ووجدت كتب قراءته الخفيفة على رف آخر : كتاب عن حياة توماس ولف ومجموعة من القصائد اسمها « انتصار الحياة » ومختارات من الشعر الأمريكى . وكان هناك كذلك كتاب عن الشطرنج وكان هذا كله لا يعد شيئا يحتاج الانسان اليه بعد عمل النهار . ولكن كانت هناك قونيج . وخلف كتاب الشعر وجدت كتابا عنوانه سيكيولوجية الزواج .

وكان بيل ممن يؤمنون بضرورة الاندماج والاشتراك فى الحياة . اما مكتبه فكان عاريا . وقالت لفيجو :

ـ لقد نظفت المكتب تماما »

ـ آه .. كان لابد من التحفظ على أوراقه من أجل الفوضية الأمريكية وانت تعلم كيف تنتشر الشائعات بسرعة ». وربما فكر أحدهم في الاستيلاء عليها وقد ختمتها »

قال ذلك بكل وقار دون أن يبتسم »

ـ هل وجدت شيئا خطيرا ؟ .

ـ انك لا تستطيع أن تنسب أمورا خطيرة لحليف »

ـ هل تمانع اذا أخذت أحد هذه الكتب من أجل الذكرى ؟ »

فقال فيجو :

ـ سوف أنظر الى الناحية الاخرى كأنى لم أرك .

واخترت كتاب « يورك هاردنج » مسئولية الغرب ، ووضعته في الحقيبة مع ملابس فونج . وقال فيجو :

ـ الا تستطيع ان تذكر شيئا كصديق ؟ . الم يقل لك شيئا آخر مرة رأيته ؟ ».

ـ نعم ..

ـ متى كان ذلك ؟

ـ صباح أمس بعد الانفجار الكبير »

وسكت حتى تتضح معنى اجابتى لعقلى أنا لا لعقله هو .. ثم سألنى :

ـ هل كنت بالخارج مساء أمس عندما مر عليك ؟ »

ـ مر على أمس ؟ ربما كنت بالخارج . وأنا لا اعتقد ذلك »

ـ ربما تحتاج الى تأشيرة خروج . وأنت تعلم اننا نستطيع أن نؤخر اعطاءك اياها .

فقلت له :

ـ هل تعتقد حقيقة انى أريد العودة الى وطنى ؟ »

ونظر فيجو من خلال النافذة الى الليل الذى اخذ يزحف على النهار وقال بأسى :

ـ معظم الناس يعودون لوطنهم »
فقلت :
ـ انى احب هنا . وفى الوطن توجد مشاكل »
وقال فيجو :
ـ ها هو ذا ميرد .. الملحق الاقتصادى الامريكى ،
ـ يحسن ان اذهب ـ فربما فكر فى اقحامى انا كذلك »
فقال فيجو بتعب :
ـ اتمنى لك حظا سعيدا . فان للملحق مزعجات كثيرة يريد أن يقولها لى .
وكان الملحق الاقتصادى واقفا بجوار سيارته الباكار عندما خرجت ، وهو يحاول ايضاح شىء للسائق ، وهو رجل ممتلىء فى منتصف العمر ووجهه يلوح وكانما لا يحتاج صاحبه الى حلاقته وناداني قائلا :
ـ فولر .. هل تستطيع أن تشرح لهذا السائق الملعون ؟ »
وشرحت للسائق ما اراد ثم قال :
ـ ان هذا هو ما أردت شرحه له ولكنه يدعى دائما انه لا يعرف الفرنسية .
ـ ربما كانت المسالة مسالة لكنة فى نطق اللغة .
ـ لقد قضيت ثلاث سنوات فى باريس . وان لهجتى كافية جدا بالنسبة لهؤلاء الذين من اهل فيتنام »
فقلت له :
ـ أهذا صوت الديمقراطية »
ـ ماذا تقصد ؟ »
ـ انى اعتقد أن هذا كتاب من تاليف « يورك هاردنج » »
ـ انى لا افهمك »
ونظر بشك الى الحقيبة التى احملها وقال :
ـ ماذا تحمل فى هذه الحقيبة ؟ »
فقلت له :

ـ زوجين من السراويل الحريرية البيضاء ؟ وزوبين من الاثواب الحريرية ، وبعض الملابس الداخلية لاحدى الفتيات ـ ثلاثة ازواج منها كلها انتاج محلى ـ وليس فيها شيء من المعونة الامريكية ».

ـ هل كنت باعلى فى الشقة ؟ »

ـ نعم ..»

ـ هل سمعت الاخبار ؟ »

ـ نعم ..

ـ انه لشيء فظيع .. فظيع واعتقد ان الوزير المفوض فى غاية « الانشغال » واعتقد انه الآن مع المندوب السامى الفرنسى وسوف يطلب مقابلة رئيس الجمهورية ».

ووضع يده على ، وسالنى وقادنى بعيدا عن السيارة وقال :

ـ انك تعرف بيل جيدا فانا اعرف والده « البروفسور هارولد » ».

فقلت :

ـ من بيل ؟ »

قال :

ـ لا شك انك سمعت عنه »

ـ لا ..»

ـ انه حجة عالمى فى الابحاث المائية . الم تر صورته على غلاف مجلة « تايم » فى الشهر الماضى ؟ .

ـ بلى .. اظن انى اتذكر ذلك . صورة بيل متهاو فى مؤخرة الصورة ورجل يلبس منظارا مذهب الاطار فى المقدمة .

ـ انه هو .. وكان على ان ارسل له برقية فى الوطن ، وذلك شيء مزعج لانى كنت احب هذا الشاب كابنى ».

ـ ان هذا يجعلك شديد الصلة بابيه ».

فنظر لى بعينيه المبللتين بالدموع وقال :

ـ ما الذى يقلقك ؟ ان هذه ليست بطريقة للكلام عندما يموت شاب خير .

فقلت :

ـ انى لآسف . ان الموت يؤثر فى الناس بصور مختلفة . ماذا كتبت فى برقيتك ؟

فاجاب بتؤدة ووقار :

ـ انى لمحزون ان انعى وفاة ابنك وفاة جنـــــدى مخلص وقد وقعه الوزير المفوض .

فقلت :

ـ موت جندى . اليس ذلك يدعو الى الحيرة ؟

ـ انى اقصد بالنسبة لاهله فى الوطن .

ـ ان البعثة الاقتصادية ليست هى الجيش . هل تحصلون على وسام القلب القرمزى فيها ؟

فقال بصوت منخفض :

ـ لقد كان له مهمات خاصة .

فقلت :

ـ آه . لقد كنا جميعا نعتقد ذلك .

ـ انه لم يبح بشىء . هل تكلم عن شىء ؟

ـ آه ـ كلا ـ لقد كان امريكيا هادئا جدا . وهى عبارة فيجوم

ـ هل لديك فكرة . لماذا قتلوه ؟ ومن الذى قتله ؟

وفجاة أحسست بالغضب ، فلقد سئمتهم جميعا . بمخزونهم الخاص من الكوكاكولا ومستشفياتهم المتنقلة وسياراتهم وبنادقهم غير الحديثة جدا وقلت : نعم . لقد قتلوه لانه كان ساذجا جدا لانه كان شابا . وجاهلا . وسخيفا . ولأنه جعل نفسه يدخل فى دوامة ، ولم يكن لديه أية فكرة عما يدور ويحدث وقد أعطيتموه نقودا ، وكتب يورك هاردنج وقلتم له : هيا ـ الى الأمام اكسب لنـــا الشرق . وعندما كان يرى قتيلا كان لا يســـــتطيع حتى رؤية الجروح . لقد كان مزعجا .

فقال بصوت عتاب :

ـ انى كنت أعتقد أنك صديقه .

ـ لقد كنت صديقه ، وكنت أفضل أن أراه جالسا فى وطنه يقرأ جرائد الأحد ويتتبع أخبار البيسبول ، وكنت أحب ان أراه سالما مع فتاة أمريكية من أوساط الناس تنتمى الى نادى الكتب .

فتنحنح وقال :

ـ بالطبع لقد نسيت هذه المهمة السيئة الحظ ـ انى اوافقك يا فولر . لقد سلك سلوكا سيئا جيدا ـ وانا لا اكتم عنك انى تكلمت معه طويلا عن مهمته فانت ترى أننى كنت أعرف أباه وامه .

فقلت له :

ـ ان فيجو ينتظر .

وتركته وسرت ولاحظ فونج لأول مرة وعندما نظرت اليه وجدته يرقبنى بألم ممزوج بالامتهان كانه اخ أكبر لا يستطيع ان يفهم الموقف .

الفصل الثالث

كان بيل قد دعا نفسه الى ما أسماه كأسا . ولكنى أمر فتجيدا أنه لا يشرب حقيقة وخطر لى انه يحاول أن يجعلنى انزلق وأن الحديث كان سخرية وملهاة مقنعة بالنسبة لفرضه الحقيقى حيث ان الشائعات فى سايجون تشير الى أنه يعمل فى مهمة سرية وربما كان يعد العدة لتزويد « قوة ثالثة » بالسلاح الامريكى — وربما كانت هذه القوة هى فرقة الأسقف الموسيقية وهى كل ما تبقى له من جنوده الذين لا يدفع لهم أجورهم وكان التلغراف الذى وصل الى فى هانوى قد احتفظت به فى جيبى ولم أجد مصلحة فى ابلاغ فونج لأن ذلك سيؤدى الى افساد الأشهر القليلة الباقية بالبكاء والمنازعات وتوبت الا أذهب للحصول على تأشيرة الخروج الا فى آخر لحظة ممكنة خشية أن يكون لها قريب فى ادارة الهجرة وقلت لها : « ان بيل سيأتى فى السادسة » فقالت :

— سأذهب لمقابلة أختى .

— اننى اعتقد انه يرغب فى رؤيتك .

— انه لا يحبنى ولا يحب عائلتى — فعندما كنت مسافرة لم يحضر مرة واحدة لرؤية أختى برغم انها كانت قد دعته لزيارتها وقد آلمها ذلك جدا .

— انك لست فى حاجة الى الخروج .

— لو كان يريد أن يرانى لكان عليه أن يدعونا الى فندق ماجستك . انه يريد أن يتكلم معك على انفراد بخصوص العمل .

— وما هو عمله ؟

— الناس يقولون : انه يستورد اشياء كثيرة .

— اى نوع من الاشياء ؟

ـ أدوية ومستحضرات طبية .

ـ ان هذه الأشياء لوحدة مكافحة التراخوما فى الشمال ـ والجمارك لا تطلع على محتويات الطرود . لأنها طرود ديبلوماسية ولكن حدث مرة غلطة اذ فتحها رجل من الجمارك وقد فصل الرجل لذلك . وهدد السكرتير الأول بالمفوضية الأمريكية بوقف كل الواردات .

ـ وماذا كان فى الطرد ؟

ـ بلاستيك .

وقلت بكسل :

ـ ولماذا يريدون البلاستيك ؟

وعندما رحلت فونج كتبت الى انجلترا ـ وكان أحد مراسلى رويتر مسافرا الى هونج كونج بعد أيام ويستطيع أن يرسل خطابى من هناك ـ وكنت اعلم أن اعتراضى لا أمل فى نجاحه ولكنى لم اكن أريد أن الوم نفسى لعدم اتخاذى كل وسيلة ممكنة لالغاء النقل . وكتبت الى رئيس التحرير أن هذا الوقت غير مناسب لتغيير مراسليهم ـ فالجنرال لاتردى تاسنى كان على شفا الموت فى باريس والفرنسيون على وشك الانسحاب من (هوى بنه) والشمال لم يكن فى يوم من الأيام فى خطر مماثل ـ وأنا لست صالحا لكى أكون محررا للشئون الخارجية فما أنا الا مراقب للحوادث وليس لى رأى صريح فى الأمور ـ وفى الصفحة الأخيرة طلبت منه على أساس المصلحة الشخصية الا يصر على نقلى برغم علمى أن العاطفة الانسانية لن يكون لها اثر عند اولئك المديرين للجريدة الجالسين أمام مكاتبهم فى لندن وأنهم يضعون مصلحة الجريدة ـ والموقف يتطلب ذلك ـ أمام كل اعتبار فردى . وكتبت له أقول « لأسباب شخصية أعتبر نفسى غير سعيد بالمرة لنقلى من فيتنام ـ وانا لا أعتقد انى سوف أقوم بعملى على خير ما يرام فى انجلترا حيث توجد المشاكل المالية والمشاكل العائلية ولو كان فى استطاعتى من الناحية المالية ان أستقيل لفضلت ذلك على العودة الى المملكة المتحدة . وأنا اذكر ذلك لاظهار قوة معارضتى للنقل . ولا أعتقد

انكم وجدتموني مراسلا غير ناجح وهذه هي اول خدمة اطلبها منكم ثم نظرت الى مقالي عن هزيمة « فات ديم » حتى أستطيع ان ارسله من هونج كونج ولا يستطيع الفرنسيون أن يحتجوا الآن ـ فلقد رفع الانتصار ومن الممكن تصوير الهزيمة على أنها انتصار ثم مزقت الصفحة الاخيرة من كتابتي الى رئيس التحرير لعلمي بعدم جدواها « فالاسباب الشخصية » سوف تكون موضع سخرية خبيثة فالمعروف أن كل مراسل أجنبي له عشيقته من أهل البلاد وسوف يتخذ رئيس التحرير من ذلك مادة للسخرية مع سكرتير التحرير الذي سيحمل القصة معه الى منزله حيث يقيم في « فيللا » في « فالاسباب الشخصية » سوف تكون موضع سخرية خبيثة ـ منذ تعرفه عليها في « جلاسجو » وكنت أستطيع أن أتخيل صورة المنزل الذي لا تعرف الرحمة سبيلا الى قلب أصحابه . « فالأسباب الشخصية » يمكن أن تكون محلا لسخرية أنا في غنى عنها .

وقرع الباب ففتحته ووجدت بيل وكلبه الأسود يتقدمه ونظر بيل من فوق كتفي ووجد الغرفة خالية وقلت :

ـ أنا بمفردي وفونج مع أختها .

وتضرج وجهه ولاحظت أنه قد ارتدى قميصا « مشجرا » من القمصان هاواى برغم انه كان قميصا متحفظا بعض الشيء في لونه وتصميمه ـ ودهشت . هل اقيمه ان له نشاطا مضادا لأمريكا ؟ « لا » بالطبع ، وقلت له :

ـ هل لك في كأس ؟

ـ شكرا .. قدح من البيرة .

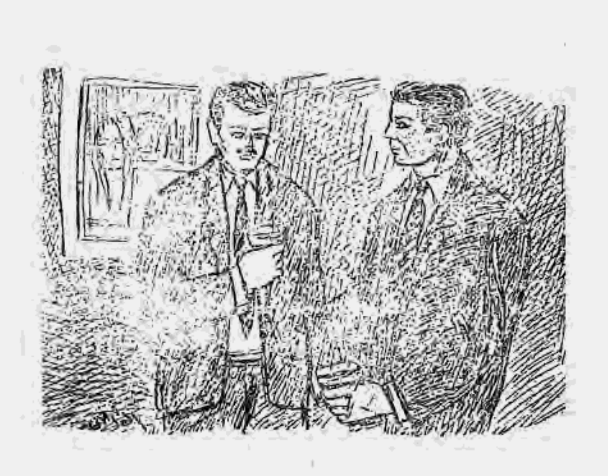
ـ آسف ـ ليس لدينا ثلاجة . لقد أرسلنا في طلب الثلج ـ ما رأيك في كأس من الويسكي ؟

ـ كأس صغيرة ـ ان لم يكن مانع . فانا لست متعودا المشروبات القوية .

ـ بالثلج .

ـ مع كثير من الصودا ان لم تكن تشكو من قلتها .

وقلت :



ـ انا لم اركَ منذ مقابلتنا فى « فات ديم » .

ـ الم يصلك خطابى ـ يا توماس ؟

وكان عندما يستخدم اسمى المسيحى فهذا معناه اعلان منه انه ليس فى روح طيبة وانه ليس لديه ما يخفيه ، وانه هنا لكى يستحوذ على فونج . ولاحظت ان حلاقة شعره قد تغيرت ، وقلت له

ـ لقد تسلمت خطابك واعتقد انه من المفـــروض ان اطرحك ارضا .

فقال :

ـ بالطبع ، فلديك كل الحق يا توماس ، ولكنى كنت ملاكما فى الكلية وانا اكثر منك شبابا بكثير .

ـ انها لن تكون حركة ناجحة منى أليس كذلك ؟

ـ انت تعلم ياتوماس ، وانا اعتقد انك تشعر بالشعور نفسه . التى لا احب مناقشة مسألة فونج بغير حضورها . واعتقد انه يجب ان تكون موجودة .

ـ حسنا . اذن ما الذى سوف تناقشه ؟ البلاستيك ؟

ولم اكن اقصد مفاجاته . وقال :

ـ هل تعرف ذلك ؟

ـ لقد قالت لى فونج .

ـ يمكنك ان تتاكد ان هذا معروف فى المدينة كلها . وما اهمية ذلك ؟ اهل تنتوى الدخول فى تجارة لعب الأطفال ؟ نحن لا نحب ان نعرف تفاصيل المعونة التى ترسلها ، وانت تعـــرف احوال الكونجرس ، هذا بالاضافة الى الزيارات التى يقوم بها اعضـــاء مجلس الشيوخ ، ولدينا كثير من المتاعب بخصوص فرقة مكافحة التراخوما لأنهم كانوا يســـتخدمون نوعا من الدواء بدلا من نوع آخر .

فقلت له :

ـ ومع ذلك فمازلت لا افهم مسألة البلاستك .

وجلس كلبه على الارض ناظرا الى محتويات الغرفة وهو يلهث ولسانه يبدو كأنه « كعكة مشوية » وقال بيل :

ـ اوه . انت تعلم أننا نريد أن نساعد الصناعات المحلية على الوقوف على قدميها ، وعلينا أن نكون حذرين من ناحية الفرنسيين فهم يريدون ان نشترى كل شيء من فرنسا .

ـ أنا لا الومهم . فالانفاق على الحرب يحتاج الى اموال .

فقال :

ـ هل تحب الكلاب ؟

فقلت :

ـ لا .

ـ كنت اعتقد أن البريطانيين من المحبين الكبار للكلاب .

ـ نحن كذلك نعتقد ان الأمريكان محبون للدولار ـ ولكن هناك بعض الشواذ عن القاعدة .

ـ انى لا اعرف كيف يمكن ان أكون بدون الكلب « ديوك » فانت تعرف انى أشعر احيانا بوحدة قاتلة .

ـ انك لديك الكثير من الرفقاء فى الفرع الذى تعمل فيه .

ـ ان أول كلب ملكته كان يسمى « برنس » وسميته باسم « الامير الاسود » . انت تعرفه . انه ذلك الأمير ...

فقاطعته قائلا :

ـ الذى نقل كل النساء والأطفال الى « ليموج »

ـ انا لا اذكر ذلك .

ـ ان كتب التاريخ قد ذكرتها .

ورأيت كثيرا من المرات هذه النظرة المتأملة المملوءة بخيبة الأمل تلمس عينيه عندما لا تتفق الحقيقة أو تتمشى مع المثل

الرومانتيكية التى يتمسك بها وعندما ينزل شخص يحبـه الى مستوى اقل من المستوى الذى وضعه فوقه . وتذكرت انى قد عرفت « ليورك هاردنج » غلطة كبيرة عن حقيقة من الحقائق وتألم بيل وكان على ان أعزيه وقلت له حينئذ : « ان من طبيعة البشر أن يخطئوا » فضحك بعصبية وقال : « ربما تفكر فى أنى مغفـل ولكن لقد كنت أظن أنه غير عرضة للخطأ . ولقد احببه ابى كثيرا من المدة الأولى التى قابله فيهـا وأبى من النـاس الذين يصعب ارضاؤهم » .

وكان الكلب الاسود الكبير المسمى « ديوك » قد وجد أنه لهث ليتعود جو الغرفة وأخذ يعبث فيها وقلت لبيل : « هل لك أن تدعو كلبك الى السكون ؟ » فقال : « أوه . أنا آسف جدا . ديوك . ديوك ـ اجلس هادئا ـ ديوك » وجلس ديوك وأخذ يلحس جسمه بصوت مسموع ـ وملأت الكئوس وتعمدت فى أثناء مرورى أن أضايق الكلب وسكت الكلب ولكن لمدة « بسيطة » فقد أخذ يحك جلده وقال بيل : « ان ديوك فى غاية الذكاء » .

ـ وما الذى حدث لبرنس ؟.

ـ لقد دهمته سيارة .

ـ هل تألمت ؟

ـ أوه . لقد حزنت كثيرا . فانه كان يعنى شيئا كثيرا بالنسبة لى ولكن على المرء أن يكون عاقلا ـ فما من شىء يمكنه ارجاعه .

ـ ولو فقدت فونج هل تكون عاقلا ؟

ـ أوه . نعم ارجو ذلك ـ وانت ؟

ـ انى أشك فى ذلك ـ ربما أصبح مجنونا ـ هل فكرت فى ذلك يا بيل ؟

ـ كنت أتمنى أن تناديني « الدب » يا « توماس » .

ـ لا . أفضل الا اناديك بذلك الاسم ـ فان الاسم « بيل » له معنى خاص . هل فكرت فى الأمر ؟

ـ بالطبع أنا لم أفكر فى فقدها . وانك احسن فرد مستقيم رأيته . وكلما تذكرت كيف سلكت عندما اقتحمت عليك الغرفة فى ...

ـ أنا اتذكر أننى كنت افكر قبل أن انام فى تلك الليلة كم يكون الامر مريحا لو حدث هجوم وقتلت أنت فيه . فتموت ميتة بطل .

ـ لا تسخر منى يا توماس . أبدو لك غبيا بعض الشىء ولكنى أعرفك عندما تريد أن تمزح .

ـ أنا لا امزح .

فقال :

ـ أنا أعرف انك لو تجردت من عواطفك فانك تريد لها الخير .

وهنا سمعت صوت خطوات فونج ـ وكنت اتمنى أن يكون قد رحل قبل أن تعود هى ـ وسمع صوت مشيتها وعرفها وقال :

ـ هاهى ذى .

برغم أنه لم يكن لديه سوى ليلة واحدة ليتعرف على طريقة خطوها ، وحتى الكلب وقف الى جوار الباب اللى تركته مفتوحا لترطيب الجو ، وكان الكلب قد « اعتبرها » واحدة من عائلة بيل وأنا شخص متطفل وقالت فونج :

ـ ان اختى لم أجدها .

ونظرت الى بيل بتحفظ ، وتعجبت هل هى تذكر الحقيقة أو أن اختها طلبت منها العودة بسرعة ؟

وقلت :

ـ هل تذكرين مستر بيل ؟

فقالت بادب :

ـ لى الشرف .

وقال لها ووجهه يتضرج بالحمره :
ـ انا فى غاية السرور لرؤيتك ثانية .
فقالت :
ـ ماذا يقول ؟
فقلت :
ـ ان لغتها الانجليزية ليست جيدة .
فقال بيل :
ـ انا اخشى ان تكون فرنسيتى اكثر ضعفا ، وانا ادرس الآن وسوف افهم لو ان مس فونج تكلمت ببطء .
فقلت :
ـ سوف أعمل كمترجم . فان اللهجة المحلية تحتاج الى وقت لفهمها والآن ماذا تريد ان تقول اجلس يا فونج . ان مستر بيل قد حضر « خصيصا » لرؤيتك . هل انت متأكد يا بيل انك لا تريد ان اخرج واترككما معا .
فقال :
ـ انا اريد ان تسمع كل ما سوف اقوله . والا لم يكن ذلك عدلا .
ـ حسنا هات ما عندك .
وقال بوقار كأنه قد تمرن على قول ما يقوله انه يحب ويحترم فونج كثيرا ، وانه شعر بذلك من تلك الليلة التى رقص فيها معها، وترجمت اقواله بعناية وجلست فونج ساكنة ويداها فى حجرها كما لو كانت تستمع الى رواية فى السينما وقال بيل :
ـ هل فهمت هى ما قلته ؟
ـ بقدر ما اعرف . هل تحب ان اضيف شيئا من الحرارة الى حديثك ؟
ـ اوه . لا . ترجم فحسب انا لا اريد ان اجذب حبها عن طريق العاطفة .

ـ افهم ما تقول .

فقال :

ـ قل لها انى أريد أن أتزوجها .

وقلت لها ذلك فقال :

ـ وماذا قالت ؟

ـ قالت : هل انت جاد فى طلبك ؟ . فقلت لهـــا : انك من الصنف الجاد .

فقال :

ـ أعتقد أن هذا موقف محرج . أن أطلب منـــك بالذات أن تترجم .

ـ نعم محرج .

ـ وأنت تبدو طبيعيا ـ وعلى كل فانت أحسن صديق لى .

ـ انوبا الطيبة منك ان تقول ذلك .

ـ ليس هناك شـــخص اتوجه اليه فى وقت المتاعب سواك . وأعتقد أن حبك للفتاة التى اعشقها هو نوع من المتاعب .

ـ بالطبع . وكنت أتمنى أن يكون حبيبها شخصا آخر سواك يا توماس .

ـ حسنا . ماذا اقول لها بعد ذلك . هل أقول لهـــا : انك لا تستطيع العيش بدونها .

ـ لا . هذا كلام عاطفى جدا . وهـــو ليس بصريح كذلك . حقيقة انه على ، أن لم تتزوجنى ، أن أرحل بالطبع ولـــكن المرء يتعود التغلب على كل شىء.

فقلت له :

ـ هل من الممكن أن أقول كلمة بالنسبة لنفسى .

قال :

ـ لا . بالطبع لا . أن هذا من العدل يا توماس .

وقلت :

ـ حسنا يا فونج هل تريدين أن تتركيني من أجله . انه سوف يتزوجك وأنا لا استطيع وأنت تعرفين السبب .

فقالت :

ـ هل انت مسافر ؟

وفكرت فى خطاب رئيس التحرير فى جيبى وقلت :

ـ لا .

ـ ألن تسافر أبدا ؟

ـ كيف يمكن ان يعد المرء بذلك ؟ ان بيل نفسه لا يستطيع أن يعد بذلك والزواج قد تنفصم عراه بسرعة .

فقالت :

ـ انا لا اريد أن اتركك .

ولكن لهجتها لم تكن صريحة حيث انها كانت تحمل ...ل معنى « ولكن .. » وقال بيل :

ـ انى اعتقد أنه على أن أضع كل أوراقى على المائدة ـ فأنا لست غنيا لكن عندما يموت ابى سأرث نحو خمسين الف دولار . وأنا صحتى طيبة وقد كشف على طبيب منذ شهرين . وسوف اطلعها على كشف ضغط الدم .

فقلت :

ـ انا لا أعرف كيف اترجم هذا الكلام . وما الداعى له ؟ هل هذه هى طريقة الحب فى أمريكا . أرقام دخلك ، وعدد ضربات قلبك ؟

قال :

ـ انا لا أعرف ـ فلم يسبق لى أن تقدمت بمثل هذا العرض ـ ربما فى الوطن كانت أمى تستشير أمها .

ـ تستشيرها عن عدد ضربات قلبك ؟

قال :

ـ اتسخر منى يا توماس ؟ انا اعتقد انى « موضة » قديمة ، وأنت تعرف انى ضائع فى مثل هذا الموقف .

ـ وكذلك انا . الا تؤمن معى بعدم جدوى هذه المناقشة ؟ ثم ترمى الزهر ليكسبها احدنا .

ـ الآن تدعى القوة يا توماس . وأنا اعلم انك تحبها بطريقتك بمثل القوة التى أحبها أنا بها .

ـ حسنا . واصل كلامك يا بيل .

ـ قل لها : اننى لا اتوقع منها أن تحبنى على الفور . فسوف يأتى الحب بمرور الزمن بل قل لها : ان ما أعرضه عليها هوالاحترام والأمان . ان هذا لا يبدو مثيرا . ولكنه ربمـــــا كان احسن من العواطف .

فقلت :

ـ انها تستطيع ان تحصل على العاطفة باستمرار وذلك مع سائقك عندما تذهب الى المكتب .

وتضرج وجهه ـ ووقف بصعوبة على قدميه وقال :

ـ هذه نكتة قذرة ولا أحب أن تهان فونج وليس لك الحق ...

ـ انها ليست زوجتك بعد . فلماذا تغضب ؟ ماذا تستطيع أن تقدمه لها . مثنى دولار عندما تتركها وتسافر الى انجلترا أو هل ستبيعها مع الاثاث ؟

ـ ان الأثاث ليس ملكى .

قال :

ـ وكذلك هى .. فونج هل تتزوجيننى ؟

ـ وماذا عن ضغط الدم وشهادة الفحص الطبى ، ومـــوف تحتاج الى شهادة لها بذلك . وقد تحتاج الى شهادة خاصـــة لى وكذلك سوف تحتاج الى شهادة بحسن طالعها . كلا فان هـــذه عادة هندية .

ـ هل تتزوجينى ؟

فقلت :

ـ قل لها بالفرنسية . فانى ملعون لو ترجمت لك بعد ذلك» ووقفت على قدمى فزمجر الكلب وقد جعلنى ذلك غضوبا . وقلت له :

ـ اطلب من كلبك الملعون ان يسكت . ان هذا هو بيتى وليس بيته .

فكرر سؤاله لها :

ـ هل تتزوجينني ؟

وخطوت خطوة نحو فونج وزمجر الكلب ثانية وقلت لفونج :

ـ قولى له لابد أن يذهب ويأخذ كلبه معه .

وقال بيل :

ـ تعالى معى الآن .

وقال بالفرنسية معى . فقالت فونج :

ـ لا . لا .

وكانت المشكلة « بسيطة » يمكن حلها بكلمة من حرفين «لا» وشعرت براحة كبيرة ووقف بيل وفمه مفتوح قليلا وعلى وجهه تعبير ينم عن الحيرة وقال :

ـ لقد قالت « لا » .

فقلت :

ـ انها تعرف الى ذلك الحد من الانجليزية .

واردت ان اضحك لقد جعلنا من انفسنا مغفلين . وقلت :

ـ اجلس وتناول كاسا اخرى يا بيل .

قال :

ـ اعتقد انه على أن اذهب .

ـ تناول كاسا واحدة .

فتمتم :

ـ يجب الا اشرب كل ما لديك من ويسكى .

ـ انى احصل على كل ما اريده من المفوضية .

وصرت نحو المائدة فكشر الكلب عن انيابه وقال بيل بغضب :

ـ اهدأ يا ديوك ـ كن مؤدبا .

ومسح العرق الذى تصبب على جبهته وقال :

ـ انني في غاية الاسف يا توماس لو كنت قلت كلاما لم يكن لي أن اقوله فانا لا ادرى ما الذى حدث لى .

وتناول الكأس وقال :

ـ ان الفائز هو الأحسن . « فقط » ارجو الا تتركها ياتوماس .

وقلت له :

ـ بالطبع انا لن اتركها .

وقالت لى فونج :

ـ هل يحب أن يدخن الغليون ؟

وسألته :

ـ هل تحب أن تدخن الغليون ؟

ـ لا . اشكرك سأشرب تلك الكأس ثم أنصرف . وآسف بخصوص أن اقول لهما انى راحل .. »

ديوك « فانه عادىء بطبعه عادة »

ـ ابق حتى نتعشى معا .

ـ انا أفكر في ان اخلو بنفسى ان لم يكن لديك مانع .

وابتسم ابتسامة غير موثوق منها وقال :

ـ اعتقد أننا سلكنا سلوكا غريبا . وانى اتمنى أن تتزوجها يا توماس .

فقلت :

ـ هل تريد ذلك حقيقة .

قال :

ـ نعم . منذ رأيت ذلك المنزل ذا الخمسمائة الفتاة فمن ذلك التاريخ وأنا خائف من اجلها .

وشرب كأس الويسكي الذي لم يعقده بسرعـــة غير ناظر الى فونج . وعندما ودعنا لم يلمس حتى يدها بل حنى لها رأســـه بطريقة فيها الخجل . ولاحظت كيف تابعته عيناها حتى الباب . وعندما اقتربت من المرآة لاحظت أن الزرار الأعلى من «البنطلون» بقي غـــير مكانه نتيجـــة لظهـــور « كرش » وفي خـــارج الباب قال بيل :

ـ انى أعد بأنى لن أراها يا توماس . وأنت لن تجعل ما حدث يؤثر فى الصداقة بيننا . وسوف أطلب النقل عندما أنهى خدمتى ..

ـ ومتى يكون ذلك .

ـ في حوالى سنتين .

وعدت الى الغرفة وفكرت ، « وما الفائدة ؟ . وكان أحرى بى أن أقول لهما انى راحل ..

وقالت فونج :

ـ هل أعد لك الشراب ؟.

ـ نعم . بعد لحظة ســـوف أكتب خطابا .

وكان هو الخطاب الثانى الذى كان على أن اكتبـــه في ذلك اليوم . ولم أمزق منه شيئا ـ برغم يأسى من فائدته ـ فقد كتبت فيه ما يلى : « عزيزتى هيلين . انى عائد الى انجلتـــرا فى ابريل القادم لأشغل وظيفة المحرر الخارجى . وتستطيعين أن تتخيلى انى غير سعيد بهذا . فانجلترا بالنسبة لى هى رمز فشلى . وكنت أنوى أن يدوم زواجنا . وحتى يومنا هذا فانى غير واثق مما حدث فلقد حاول كلانا اصلاح الخطأ واعتقد ان عدم نجاحنـــا يرجع الى سوء خلقى وانا أعرف كم أكون قاسيا ورديئا فى سلوكى . والآن أعتقد ان اخلاقى قد تغيرت والسبب يرجع فى ذلك الى اقامتى فى الشرق . وأخلاقى لم تتحسن وربما يرجع ذلك « ببساطة » الى انى قد تقدمت فى العمر خمس سنوات وفى نهاية العمـــر تبـــدو الخمس سنوات كجزء مما سيكون عليه الباقى . ولقد كنت كريمة

جدا معى بل لم تلوميني مرة واحدة منذ انفصالنا . فهل انتظر منك ان تكوني اكثر كرما . فانا اعلم قبل زواجنا انه لن يكون هناك طلاق . وقد قبلت المخاطرة وليس لدى ما اشكو منه وفي الوقت نفسه فانى أطلب منك ذلك الطلب الآن »

ونادت على فونج من السرير قائلة انها قد اعدت الطاولة الخاصة بأدوات الشراب وقلت لها :

ـ لحظة واحدة .

وتابعت كتابة الخطاب : « وكنت أستطيع ان اقول ان طلبي هذا من اجل مصلحة شخص آخر . وبذلك أجعله اكثر احتراما ولكن الأمر ليس كذلك . وكنا قد تواعدنا انا وانت الا يكذب بعضنا على بعض واقول لك انى احب فتاة حبا جما . وقد عشنا معا مدة سنتين . وكانت في منتهى الاخلاص لي . واعتقد انى غير ضروري بالنسبة لها . فلو تركتها فانها على ما أعتقد ستحزن حزنا قليلا ولكن لن تحدث مأساة . فسوف تتزوج شخصا آخر ويكون لها عائلة . وهذه حماقة منى .. ان أقول لك ذلك . ولكن حيث انني كنت صادقا معك حتى الآن فسوف تصدقينني عندما اقول لك : ان تركي لها بالنسبة لي سوف يكون « البداية » لموتي . وانا لا أسألك أن تكوني عاقلة . فالمنطق والعقل كله في جانبك . ولا أسألك كذلك أن تكوني رحيمة فكلمة الرحمة كبيرة جدا بالنسبة لظروفي وعلى كل فأنا لا أستحق الرحمة وأعتقد أن ما اطلبه منك أن تستشعري في قلبك المحبة وان تتصرفي بسرعة قبل ان يكون لديك الوقت الكافي للتفكير . واعلم ان ذلك ممكن وسهل عن طريق التليفون أو عبر ثمانية آلاف ميل لو انك ارسلت لي برقية تقولين فيها : « انى اوافق » .

وعندما انهيت خطابي كنت أشعر كما لو كنت قد قطعت مسافة طويلة وكنت تحت « توتر » عنيف فاستلقيت على السرير على حين أخذت فونج تعد الشراب وقلت لها :

ـ انه شاب .
قالت :
ـ من ؟
قلت :
ـ بيل .
ـ ان هذا ليس مهما الى هذا الحد .
فقلت :
ـ انى ارغب فى ان اتزوجك لو استطعت يا فونج .
ـ انا اعتقد ذلك . غير ان اختى لا تصدقه .
فقلت :
ـ لقد كتبت لزوجتى توا خطابا أسألها فيه الطلاق ـ ولم اطلب منها ذلك قبل الآن وهناك فرصة لدينا .
ـ فرصة كبيرة ؟
ـ لا . انها فرصة صغيرة .
ـ لا تهتم . اشرب .
وسألتها :
ـ هل كانت أختك موجودة بالمنزل حقيقة يا فونج ؟
فوضعت الغليون على الطاولة ، وقالت :
ـ ولكنك لن تسافر .
فقلت :
ـ لو رفضت أن أذهب . كيف يمكننا أن نعيش .
ـ أنا مستعدة لأن اذهب معك ـ فأنا احب أن أرى لندن .
قلت :
ـ ان ذلك سيكون غير مريح بالنسبة لك . لو عشنا هناك معا دون زواج .
ـ ولكن ربما وافقت زوجتك على الطلاق .
فقلت :

ـ ربما .

فقالت :

ـ سوف اذهب معك على كل حال .

وكانت تعنى ما تقول ورفعت القليون وقالت :

ـ هل هناك ناطحات سحاب فى لندن ؟

وشعرت بحبى لها من سذاجة سؤالها ، فقد تكذب على أدبا منها أو لخوفها منى أو لمجرد ان تنتفع ولكن لم يكن لديهـا الذكاء الكافى لاخفاء كذبها وقلت لها :

ـ لا . اذا أردت أن تشاهدى ناطحات السحاب فعليـك أن تذهبى لأمريكا .

فنظرت الى نظرة سريعة من فوق الكاس التى فى يدها وشعرت بغلطتها . وأخذت تتكلم وهى تعد الملابس التى سوف ترتديها عند ذهابها الى لندن . كما تكلمنا عن المترو تحت الأرض الذى قرأت عنه فى احدى الروايات و « الاتوبيسات » ذات « الطابقين » . وهل ستسافر بالطائرة او تأخذ الباخرة وكذلك تكلمت عن تمثـال الحرية فقلت لها :

ـ يا فونج . إن تمثال الحرية امريكى .

الفصـــل الرابع

بعد مرض طويل ألزمني الفراش مدة في المستشفى صعدت في السلم ببطء الى مسكني في شارع كاتينات وأنا اتوقف وأستريح على أول « بسطة » منه . وأخذت النسوة يثرثرن «كعادتهن» وهن جالسات على الأرض . وساد الصمت عندما مرت وساءلت نفسي: ترى ماذا كن يقلن لي لو كنت اعرف لغتهن ؟ اسوف يخبرنني عن الأحداث التي مرت في أثناء وجودي في المستشفى . ولقد كنت فقدت مفاتيحي بين البرج والحقول ولكني ارسلت خطابا الى فونج، ولابد أنها تسلمته لو كانت مازالت موجودة ، فأنا لم أسمع أى اخبار عنها في المستشفى ولكنها كانت تكتب الفرنسية بصعوبة وأنا لا أستطيع قراءة الفيتنامية .

وقرعت الباب وفتح على التو وبدا كل شيء كما تعودته . ورقبتها بدقة وهي تسألني عن حالي ولمست ساقي الجريحة وأعطتني كتفها لكي أستند عليها كما لو كان المرء يستطيع ان يعتمد وهو آمن على الذراع الغض وقلت :

ـ أنا سعيد بعودتي الى المنزل .

وقالت لي :

ـ انها افتقدتني .

وهو بالطبع ما كنت أريد أن أسمعه وهي متعودة قول ما أحب ان اسمعه كانها حوذي يجيب عن أسئلة الراكب الا ما قد يبدو منه من غير قصد . والآن انتظرت حدوث ذلك وسألتها :

ـ اسليت نفسك ؟

فقالت :

ـ انى كنت أرى اختى دائما . فلقد حصلت على وظيفة مع الامريكيين .

ـ هل ساعدها بيل ؟

ـ ليس بيل . انه جو .

ـ من هو جو ؟.

ـ انك تعرفه فهو الملحق الاقتصادى .

ـ آه بالطبع ـ جو .

فقد كان جو من السهل نسيانه . وحتى يومنا هذا لا أستطيع تذكر شيء عنه عدا سمنته وذقنه الحليق المعطر وضحكته العالية واسمه وكل مميزات شكله عدا ما تقدم لا أذكرها وهناك بعض الرجال يختصرون دائما أسماءهم .

وبمعاونة فونج استلقيت على السرير . وسألتها :

ـ هل شاهدت أية روايات سينمائية ؟

فقالت :

ـ ان هناك فيلما سينمائيا فى سينما كاتينات .

وشرعت على الفور تقص على قصة الفيلم فى اسهاب وتفصيل على حين شغلت أنا بالنظر الى جوانب الحجرة عسى ان أرى مظروفا أبيض يمثل التلغراف الذى انتظره . وربما كان المظروف على المنضدة بجوار الآلة الكاتبة أو على « التسريحة » . وربما وضعته زيادة فى السلامة داخل « الدولاب » فى أحد الادراج حيث تحتفظ بمجموعتها من « الايشاربات » وواصلت الكلام عن الفيلم ..

ثم قالت :

ـ لقد كان الفيلم مضحكا .

وقلت لها :

ـ قبلينى يا فونج ؟

فاستجابت على الفور ولم يكن لديها شيء من خداع النساء وكانت تفعل على الفور ما أطلبه منها . وهكذا بكل « بساطة » كانت مستعدة لأن تبادلنى الحب وسألتها :

ـ هل جاءنى خطاب ؟

فقالت :

ـ نعم .

فقلت :

ـ لماذا لا تعطنى اياه .

فقالت :

ـ انك لا تستطيع أن تعمل وعليك أن تستريح .

ـ ربما كان الخطاب ليس له دخل بالعمل .

واعطتنى الخطاب ورأيت انه قد فض قبل ذلك وقرأت :«نريد تلغرافا من اربعمائة كلمة عن الجنرال لانز وتأثير رحيله على الموقف العسكرى والسياسى » وقلت لها :

ـ نعم انه بخصوص العمل ـ كيف عرفت ؟ ولماذا قرأته ؟

قالت :

ـ لقد ظننت أنه من زوجتك وكنت آمل انه يحمل اخبارا طيبة .

فسألتها :

ـ من الذى ترجم الخطاب لك ؟

ـ لقد أخذته الى أختى .

فقلت :

ـ لو كانت الأخبار سيئة هل كنت تتركيننى يا فونج ؟

فمسحت بيدها على صدرى لكى تبعث فى الثقة وهى لم تتحقق أن ما أريد منها فى هذا الوقت هو الكلمات مهما كانت غير صادقة ، وقالت :

ـ هل تريد أن تدخن ؟ أن هناك خطابا لك وأعتقـــد انه من زوجتك .

فقلت :

ـ هل فتحت ذلك ايضا ؟

ـ انا لا اطلع على خطاباتك ـ اما التلغرافات فهى للجميع . فان الكتبة فى مكتب التلغراف يقرءونها .

وكان المظروف الوارد به خطاب زوجتى قد وضـــعته بين « الايشاربات » وقامت وناولتنى اياه . وتعرفت على الخط واردت أن اسألها : لو كانت الأخبار سيئة ماذا ســتفعل ؟ لأنى أعلم أن الأخبار من زوجتى لن تكون الا سيئة . وارسالها الخطاب يؤكد ذلك فلو أرســلت لى تلغرافا لدل ذلك على نوبة مفــاجئة من الكرم . أما ارسال الخطاب فمعناه الشرح وسرد المبررات .

وقالت فونج :

ـ ما الذى أنت خائف منه ؟

وقلت لنفسى :

ـ انى خائف من الوحدة ومن نادى الصحفيين ـ والعزلة ومن بيل وقلت لها :

ـ جهزى لى كأسا من البراندى والصودا .

ونظرت الى الخطاب وقرأت فى اوله « عزيزى توماس » وفى آخره « المحبة . هيلين » وانتظرت البراندى والصودا وقلت : انه منها » وقبل أن ابدأ فى قراءته فكرت فى .. هل أكذب او اقول لفونج الحقيقة . وكان الخطاب كالآتى : « عزيزى توماس . انا لم أندهش عندما تلقيت خطابك وعرفت أنك لا تعيش بمفردك . فانت لست بالرجل الذى يستطيع ذلك هل أنت الذى يستطيع أن يعيش بمفرده مدة طويلة ؟ أنت تلتقط النساء كما يلتقط رداؤك التراب وربما كانت أشعر بشىء من الشفقة بالنسبة لك لولا شعورى بأنه فى امكانك أن تجد ما يسليك بسهولة عند وصولك الى لندن .

وأنا لا اعتقد انك سوف تصدقنى . ولكن الذى جعلنى اتمهل ولا ارسل لك تلغرافا فيه كلمة « لا » هو تفكيرى فى الفتاة المسكينة التى تعيش معك فنحن اكثر منك اهمية فى الموضوع » .

وتناولت جرعة من البراندى .

وقالت فونج :

ــ هل الأخبار سيئة ؟

فقلت :

ــ شديدة بعض الشىء ، ولكنها محقة.

وقرأت باقى الخطاب :

« انى كنت دائما أعتقد أنك تحب « آن » اكثر من اية واحدة فينا حتى جمعت متاعك ورحلت . وانت الآن يبدو انك ترسم خطتك لترك فتاة اخرى واستطيع ان اقول : انه من ثنايا خطابك لم تكن تتوقع منى ردا مناسبا . لقد كتبت تقول : « انك فعلت ما فى وسعك » ألم تفكر انت فى ذلك ؟ وما الذى كنت تفعله لو أرسلت لك برقية اقول فيها « نعم » ؟ هل كنت ستتزوجها وانت لم تقل لى اسمها وربما تخبرنى عن اسمها ؟ . واعتقد انك مثل بقيتنا قد تقدمت فى السن ولا تحب أن تعيش بمفردك وأنا نفسى أشعر بالوحدة القاتلة احيانا . واعتقد أن آن قد وجدت صديقا آخر ولكنك تركتها فى الوقت المناسب » .

وقلت لنفسى : لقد أصابت الجرح القديم بالضبط . وشربت جرعة من البراندى وقالت فونج :

ــ دعنى أعد لك شرابا مرة اخرى .

وقلت لها :

ــ افعلى . افعلى اى شىء .

وتابعت القراءة :

« ان هناك سببا واحد يجعلنى اقول لك « لا » ولا داعى الكلام عن السبب الدينى لانك لم تعتقد أو تفهم هذه الناحية قط .

فالزواج لا يمنعك من ترك امرأة . هل هو ؟ بل فحسب بؤخر الذى سيحدث . وسوف يكون الأمر غير عادل بالمرة لهذه الفتاة التى تعيش معها لو بقيت معها مدة مثل المدة التى قضيتها معى ــ وسوف تأتى بها معك الى لندن وستشعر بانها غريبة وعندما تتركها يتنابها الخوف وانا اعتقد انها لا تعرف حتى كيف تستعمل الشوكة والسكين . وانا قاسية فى الكلام لانى أريد مصلحتها هى ولكن يا عزيزى توماس انا أفكر فيك كذلك »

واحسست بالمرض . فلقد مر وقت طويل منذ تلقيت خطابا من زوجتى ولقد دفعتها الى كتابة هذا وكنت أشعر بالمها فى كل سطر منه وكان المها يحرك المى فنحن قد عدنا الى النظام القديم من ايلام كل منا للآخر .

وكنت مسرورا لمهاجمة زوجتى لى ثانية . فلقد نسيت آلامها مدة طويلة وكان هذا هو الارضاء الوحيد لها .

وقالت فوتنج :

ــ هل ستتركك لتتزوجنى ؟

ــ انا لم اعرف بعد .

فقالت :

ــ الم تقل فى خطابها ؟

فأجبتها :

ــ لو قالت ذلك فانها تقوله ببطء شديد .

وفكرت . لم يشعر الانسان بالكبر عندما يجد نفسه مشغولا من جانبين ؟ . ان الحروب الحقيقية أكثر براءة من هذه الحرب ومدافع المورتار لا تنزل اضرارا اكثر من هذه الاضرار . وواصلت القراءة :

« ولو استجبت ضد كل مشاعرى وقلت : « نعم » فهل يكون ذلك حسنا بالنسبة لك . فلقد ذكرت انك استدعيت الى انجلترا وانا سأندهش انك تكره ذلك وتفعل أى شىء لتجعل الأمر اكثر سهولة

واستطيع أن أرى أنه في امكانك التفكير في الزواج بعد شرب عدة كؤوس وفي اول مرة حاولنا ذلك انا وانت ولكننا فشلنا والانسان لا يبذل الجهد نفسه عند تفكيره في الزواج مرة اخرى . وانت تقول : ان فقدك هذه الفتاة معناه ان هذا نهاية حياتك ، وقد استخدمت الجملة نفسها سابقا بالنسبة لي واستطيع أن اريك الخطاب . فما زلت محتفظة به واعتقد انك كتبت بالطريقة نفسها الى « آن » وقلت : اننا دائما نحاول ان يقول أحدنا الصدق للآخر . ولكن ياتوماس صدقك كان دائما مؤقتا . وما الفائدة من المناقشة معك او محاولة جعلك تفهم الأسباب انه من الأسهل أن أفضل ماتمليه على عقيدتي وهو ما تظنه غير منطقي وأنت تكتب « ببساطة » . انا لا اعتقد في الطلاق وديني يمنع الطلاق والجواب عن السؤال يا توماس هو « لا . لا . »

وكان هناك نصف صفحة قبل «الامضاء» ولم أقرأها واعتقد أنها تحمل أخبار « الطقس » وأخبار احدى عماتي التي أحبها .

ولم يكن لدى سبب للشكوى . وكنت اتوقع الجواب وفيه كثير من الحقائق وكنت أرجو الا تعرض أفكارها هكذا بهذا الشكل من الشرح المؤلم لي ولها وقلت لفونج :

ـ انها تقول لا « وقلت ذلك بدون تردد » فهي لم تستقر على راى . وهناك بعض الأمل .

وضحكت فونج وقالت :

ـ تقول هناك امل ووجهك في غاية الحزن .

واستلقت عند قدمي وسألت نفسي : ماذا اقول لبيل ؟ . وبعد أن شربت اكثر احسست بأني اكثر استعدادا لمواجهة المستقبل وقلت لها ان الامل كبير في موافقة زوجتي على الطلاق وان زوجتي تستشير أحد المحامين وانه من المتوقع بين يوم وآخر ان اتلقى التلغراف الذي يجعلني حرا .

وقالت لي هي ، وكأن صوت اختها الذي يتكلم :

ـ ان التلغراف ليس مهما الى هذه الدرجة . وفى امكانك ان تعقد معها اتفاقا .

فقلت لها :

ـ انا لست مدخرا نقودا ولا استطيع ان افوق بيل فى هذه الناحية .

فقالت :

ـ لا تقلق ربما حدث شيء فهناك « عادة » طرق كثيرة وتقول اختى : ان فى امكانك التأمين على حياتك .

وفكرت فى الطريقة العملية التى تفكر بها اختها والتى لا تقلل من أهمية النقود فى حل المشكلات ولا تجعــــل من روابط الحب شيئا كبيرا .

وفى ذلك المساء اشترت فونج ثلاثة « ايشاربات » من الحرير قبل أن تغلق المحال فى شـــارع كاتينات وجلســت على السرير وأخذت تعرضها على وهى تصيح مبتهجــة بألوانها الجذابة وهى تملأ الغرفة بصوتها الموسيقى ثم طوتها بعناية ووضــعتها مع باقى الملابس فى درج « الدولاب » وكان يبدو أنها تعــد العدة لاقامة طويلة وساعدتها فى ذلك بأن كتبت خطابا الى بيل فى المساء نفسه وكان خطابا غاية فى الوضوح والنظر الى المستقبل . وهذا هو نص الخطاب الذى كتبته فى الليلة نفسها حيث أنى وجدته ثانية فى كتاب « يورك هاردنج » مسئولية الغرب » الذى أخذته من منزله ولابد أنه كان يقرأ الكتاب عندما وصل اليه الخطاب فوضعه داخله . كتبت له أقول :

« عزيزى بيل ..

« لقد كنت أنوى أن أكتب لك من المستشفى لكى أشكرك على ما حدث فى الليلة الموعودة . لقد أنقذتنى حقيقة من نهاية غير مؤسفة . وأنا أستطيع أن أمشى الآن معتمدا على عصا . فلقد كان الكسر فى ساقى . وعندى ما أريد أن أعلنه لك . وأنا عارف بانك

ســوف تسر له لانك كنت تقــولّ دائما : ان « صالح » فونج هو ما نريده نحن ــ الاثنين ــ فلقد وجدت خطابا من زوجتى عندما عدت الى المنزل وهى موافقة على طلاقى وبذلك فانت لست فى حاجة الى ان تقلق على فونج .

وسألتنى فونج اى لون تفضــله فى الإشـــارات فانا أحب اللون الأصفر ؟ . فقلت لها : « نعم » اللون الأصفر . ثم قلت : هل لك أن تذهبى الى الفندق وترسلى هذا الخطاب بالبريد ؟ فنظرت الى العنوان وقالت : استطيع ان احمله الى المفوضية وبذلك نوفر طابع البريد . فقلت : أفضل ان ترسليه بالبريد .

ثم تمددت فى فراشى مرتاحا وقلت لنفسى : على الأقل هى لن تتركنى الآن قبل أن اضطر الى الســـفر وربما فى الغــد بعد الشراب اســـتطيع أن أفكر فى طريقـــة تمكننى من ابقـــائها وتمضى الحياة المعتادة . وكما فى الغارات الجوية فان من المستحيل أن يكون الانسان خائفا باستمرار . فالمرء تحت تأثير العمل اليومى والأحداث التى تقابله والانفعالات غير الشخصية يفقـــد مخاوفه الشخصية . وكان التفكير فى شهر ابريل ومغادرة المفوضية والمستقبل المجهول بدون وجود فونج كل هذا قد تأثر بالتلغرافات اليومية الخاصة بالعمل والنشرات التى تصـــدرها صحافة البلاد ويعرض مساعدى وهو رجل هندى من « جوا » جاءت عائلته الى البلاد عن طريق بومباى واسمه « دومنجيز » وكان يحضر فى غيابى المؤتمرات الصحفية غير المهمة ويفتح اذنيه الى الاشاعات وما يدور من كلام ويرسل التلغرافات التى أكتبها الى مكتب التلغراف والى الرقيب وكان يقوم بمعاونة أبناء وطنه من الهنود من التجار وخاصة فى الشـــمال فى هايفونج وهانوى وقام دينه بأعمـــال المخـــابرات لحسابى واعتقد انه كان يعرف اكثر من المندوب السامى الفرنسى أماكن حشد الكتائب الشيوعية فى دلتا نهر تونكين .

ولكننا لم نكن نستخدم الأخبار التى نحصل عليها الا عنـــدما تصبح معروفة ولم نكن ندلى بأية معلومات الى المخابرات الفرنسية وكان يستحوذ على صداقة العديد من الفيتناميين وثقتهم وخاصة

الى سايجون ولكونه كان آسيويا بالرغم من أسمه كان هذا مدعاة للثقة الكبيرة به .

وكنت أحب « دومنجيز » لأخلاقه ، وكل ما تحسه فمن اختلاطك به فى المعاملات اليومية هو رقته وتواضعه وحب الحقيقة ولا يستطيع ان يكشف كبرياءه الا من كان شديد الالتصاق به مثل زوجته وربما كانت الحقيقة والتواضع صفتين متلازمتين من صفاته وان كثيرا من الاكاذيب مبعثها كبرياؤنا وفى مهنة كمهنتى وهى الصحافة فان كبريائى متمثل فى أن اكتب تحقيقا صحفيا اهم من الذى يكتبه الصحفى الآخر . ولقد كان « دومنجيز » هو الذى ساعدنى على عدم الاهتمام بالتلغرافات التى ترد من انجلترا تتساءل : لماذا لم اكتب عن هذا الحدث أو ذاك ؟ او لماذا لم اكتب القصة التى رواها مراسل آخر ؟ وانا لم اكتب هذه القصة لعلمى بكذبها .

والآن بعد أن مرض دومنجيز تحققت كم انا مدين له . لماذا لا اهتم به وكان هو يهتم بكل شيء حتى سيارتى كان يرعاها ويرى انها مملوءة بالبنزين ؟ وبرغم كل ذلك فلم يحدث مرة واحدة أن تدخل فى حياتى الخاصة ولا حتى بمجرد نظرة « واعتقد انه كان كاثوليكيا » . غير انى لم يكن لدى ما يؤيد ذلك سوى اسمه والمكان الذى ينتمى اليه . والآن وخلال مرضه الذى كان يبدو لى انه جاء رحمة لى لان وقتى كله قد اصبح مشغولا ، وبذلك خلصنى من القلق الشخصى . اصبح على ان احضر المؤتمرات الصحفية وأن اذهب الى فندق الكونتننتال لاستمع الى احاديث زملائى واشاراتهم فيها . ولكنى كنت اقل من دومنجيز مقدرة فى تمييز الصحيح من الاخبار من الكاذبة فيها ولذلك تعودت المرور عليه فى المساء لمناقشة ما قد سمعته من أخبار واحيانا كنت أجد لديه احد أصدقائه من الهنود جالسا بجوار السرير الحديدى الصغير الذى ينام عليه فى المسكن الذى يشارك فيه آخر فى احد الشوارع الصغيرة المتفرعة من شارع جالينى . وكان عندما يرانى يجلس فى السرير وقد جمع قدميه تحته حتى يخيل اليك انك لا تزور مريضا

بل ان الذى يستقبلك هو مهراجا او قسيس وعندما كانت تتملكه الحمى كان وجهه ينضح بالعرق ولكنه لم يكن يفقد قط صفاء ذهنه وكان يبدو كما لو أن المرض الذى به حل بجسم آخر غير جسمه . وكانت صاحبة المنزل الذى يقيم تضع دائما بجوار سريره ابريقا مملوءا بالشراب غير انى لم اره مرة واحدة يتناول منه شيئا .

وكان هو الذى يسأل بقلق زائد عن صحتى ويعتذر عن السلالم التى أضطر الى ارتقائها لزيارته ثم قال :

ـ أحب أن اقدمك الى صديق لى فلديه قصة يجب ان تسمعها فقلت له :

ـ نعم ..

فقال :

ـ لقد كتبت اسمه فى ورقة لأنى أعرف أنك ستجد صعوبة فى تذكر الاسماء الصينية ومفهوم اننا لن نخسر هذه القصة .. وصديقى هذا يملك مخزنا للبضائع على « رصيف » سيئو والمخزن خاص بالحديد « الخردة » .

ـ هل القصة مهمة ؟ .

ـ قد تكون كذلك .

ـ هل لك أن تعطينى فكرة عنها .

ـ افضل أن تسمعها منه ، فهناك شىء غريب ولكنى لا افهمه .

وكان العرق يتصبب من وجهه ولكنه لم يمسحه وتركه ، كأنما حبات العرق كائنات حية ومقدسة . وهكذا كان يمثل بسلوكه صورة الهندوكى الأصيل من تحمل للألم دون شكوى ولم يكن يقدم قط على تعريض حياة ذبابة للخطر .. ثم قال :

ـ كم تعرف عن صديقك بيل ؟ .

ـ لا اعرف كثيرا فاتجاهنا متضاد . وهذا كل ما فى الأمر . وانا لم اره منذ كنا معا فى « تان ين » .

ـ اية وظيفة يعمل فيها ؟ »

ـ البعثة الاقتصادية . ولكن عمل هذه البعثة يغطى تحته مساوى كثيرة واعتقد أنه مهتم بالصناعات المنزلية . واعتقد أن اهتمامه هذا ذو صلة بالسياسة الأمريكية . وانا لا احب الطريقة التى يدفعون بها الفرنسيين لمواصلة القتال وفى الوقت نفسه يزاحمونهم فى تجارتهم .

ـ لقد سمعته يتكلم منذ ايام فى حفلة أقامتها المفوضية لرجال الكونجرس الزائرين . فلقد عينوه لكى يزودهم بالمعلومات عن البلاد .

فقلت :

ـ ليكن الله فى عون الكونجرس فهو لم يمر عليه ستة اشهر فى البلاد .

ـ لقد كان يتكلم عن القوى الاستعمارية القديمة ـ فرنسا وانجلترا ـ وكيف انهما لا يستطيعان كسب ثقة الآسيويين وان الدور حل على أمريكا التى تدخل الميدان .

فقلت له :

ـ لابد أنه تكلم عن استعمارهم لهونولولو وبورتوريكو ونيو مكسيكو .

فتابع دومنجيز كلامه قائلا :

ـ أذهب الى صديقى وتكلم معه .

وعدت الى المنزل حيث تركت مذكرة لفونج وأخذت عربة الى الميناء فوصلت عند غروب الشمس . وكانت المناضد والكراسى قد اخرجها أصحاب المقاهى الى « رصيف » الميناء بجوار البواخر الراسية والسفن الحربية وكانت المطابخ المحمولة مشتعلة لطهى وجبة المساء . وفى شارع « السوم » كان الحلاقون الجائلون منهمكين مع « زبائنهم » تحت الأشجار وقارئو الطالع قد جلسوا القرفصاء واسندوا ظهورهم للحائط وأمامهم « أكوام » من ورق

اللعب . وفى حى « شولون » تجد نفسك فى مدينة مختلفة عن بقية مدينة سايجون حيث يبدو كأنما النشــاط اليومى آخذ فى البدء لا فى الانتهاء عند مغيب الشمس والسير فى الحى يشبه السير فى أجواء مسرحية . فاللافتات العمودية المكتوبة باللغة الصينية والانوار الوهاجة والازدحام الذى يحدثه وجود ممثلين اضافيين . كل ذلك تسير فيه كانك سائر فى أجنحة المسرح وأروقته الخلفية حيث يتحول المنظر فجاة الى هدوء اكثر واضواء اضعف وفى مثل هـذا الجو وهـذا الشعور سرت الى احد « الأرصفة » حيث تتزاحم الزوارق وتوجد المخازن مختفية فى الظلال ولا احد يوجد هناك . ووجدت المكان الذى أبحث عنه بصعوبة وبالمصادفة . فالابواب الذهبية كانت مفتوحة وكنت أستطيع ان ارى على ضوء مصباح « اكوام » البضائع القديمة .. كلها مناظر من رسوم بيكاسو ، أسرة قديمة ، وأحواض استحمام ، « وطفايات » للسجائر ، وهياكل سيارات . وسرت خلال ممر ضيق وناديت من يدعى مستر شو ولكن ما من مجيب . وفى نهاية الممر وجدت سلما يؤدى الى المدخل الخلفى للمسكن . وحتى السلالم كانت مملوءة بقطع من الحديد التى قد تصلح فى يوم ما لاستخدامها فى المنزل . وكان هناك غرفة كبيرة فى المدخل والعائلة تجلس وينام بعض افرادها كانما هم فى معسكر للراحة عرضة فى أى وقت للرحيل ، وهناك اكواب الشاى متناثرة فى كل مكان وعديد من الصناديق مملوءة باشياء لا حصر لها ، وسلالم من القبو جاهزة . وسيدة كبيرة فى السن جالسة على سرير وبنتان وولدان . وطفل يزحف على الأرض . وثلاث نسوة متوسطات فى العمر فى سراويل بنية اللون « وجاكتات » من القماش نفسه ورجلان فى زاوية الغرفة فى ملابس زرقاء يلعبان لعبة للتسلية ولم يعرنى أحد انتباها عندما دخلت . وكان الرجلان يلعبان بسرعة ويتعرفان على القطع التى يلعبان بها بلمسها وكان الصوت يشبه حفيف الرمال على الشاطىء بعد انحسار الموج وقفزت قطة على أحد الصناديق واقترب كلب منى ليشمنى ثم تراجع وقلت :

ـ المستر شو .

وهزت امرأتان من الثلاثة رأسيهما دون أن تنظرا الى أحد ممن فى الغرفة ورفعت امرأة قدحا من الشاى فصلته لم ملأته من وعاء ساخن فى صندوق مبطن بالحرير . وجلست على حافة السرير بجوار السيدة العجوز واحضرت لى فتاة قدح الشاى وبدا كما لو اننى قد اندمجت فى الجو مثلى مثل القطة والكلب . وزحف الطفل على الأرض ومد يده ليجذب رباط حذائى ولم ينهره أحد وعلى الحائط كانت توجد ثلاث نتائج من التى توزعها البيوت التجارية وعلى كل منها صورة فتاة فى لباس صينى زاهى اللون ذات خدود « موردة » ، كما توجد مرآة كبيرة كتب عليها « قهوة السلام » وربما كانت من المخلفات وشربت على مهل الشاى الأخضر المر وانا انقل « الفنجان » الذى ليس له يد من كف الى كف كلما أحرقتنى حرارته . ثم حاولت مخاطبة افراد العائلة بالفرنسية وسألتهم :

ـ متى يحضر مستر شو ؟ .

ولكن لم يجبنى احد . وربما لم يفهموا قولى . وعندما فرغ قدحى ملئ مرة ثانية وظل كل منهم على ما هو فيه . فامرأة كانت تكوى الملابس وفتاة تقوم بالحياكة . والصبيان منهمكان فى الاستذكار . والسيدة العجوز تنظر الى قدميها الصغيرتين نتيجة « للعادة » الصينية القديمة من لبس الأحذية الحديدية فى الصغر . والكلب يرقب القطة التى ظلت جالسة فوق الصناديق . وبدات اتحقق الحياة الشاقة التى يحياها دومنجيز .

ودخل رجل صينى ـ فى منتهى النحافة ـ الغرفة وكان يبدو وكأنه لا يشغل حيزا ما أو كأنه فى سمك الورقة التى توضع لفصل البسكويت بعضه عن بعض فى الصناديق وكل السمك فيه متمثل فى بيجامته المخططة التى يرتديها . وسألت :

ـ المستر شو ؟.

فنظر الى دون تعبير يذكر في عينيه . ونظرت الى نحـافة صدغيه والى ذراعيه اللتين فى حجم ذراعى فتاة صغيرة ومعصميه اللذين يشبهان معصمى طفل . وقلت :

ـ ان صديقى مستر دومنجيز قال لى ان لديك شيئا تريد أن تطلعنى عليه . هل أنت مستر شو ؟ .

ـ نعم أنا فعلا المستر شو .

واشار الى باحـترام أن أعاود جلوسى وخيل الى انه قد نسى السبب الذى جئت من أجله وسألنى هل ارغب فى قدح من الشاى وأنه تشرف جدا بزيارتى ـ قدم لى قدحا آخـر . ونظر الرجل حوله الى عائلته كأنما يراها لأول مرة وقال :

ـ أمي واختى وزوجتى وعمى واخى واطفالى واطفال عمى .

اما الطفل فقد زحف بعيدا عن قدمى ونام على ظهره وهو يضرب الهواء بقدميه . وسألت نفسى : ترى طفل من من هؤلاء ؟ فليس فى الموجودين من هو فى ريعان الشباب او فى سن مناسبة لينجبه وقلت :

ـ لقد قا لى مستر دومنجيز ان لديك أشياء هامة .

ـ آه . مستر دومنجيز ـ آمل أن يكون فى صحة طيبة .

ـ لقد أصيب بالحمى .

ـ ان الوقت غير صحى بالنسبة لهـذا الفصل من فصـول السنة .

وخيل الى انه لا يتذكر من هو دومنجيز . واخذ يسـعل وتحت بيجامته التى فقد منها زرارين بدا جلده مشدودا من الكحة كأنه معلق على حبل فقلت له :

ـ يجب أن ترى طبيبا أنت نفسك .

ثم أحسست أن هناك قادما جديدا قد دخل علينا . وكان شابا يرتدى حلة أوربية أنيقة وقال بالانجليزية :

ـ ان مستر شو ليست له الا رئة واحدة ..

فقلت :

ـ انى آسف جدا .

ـ انه يدخن كثيرا .

ـ ان هذا فظيع .

ـ ان الطبيب قال له : ان ذلك مضر بصحته .

ثم قال :

ـ هل لى أن اقدم نفسى ؟ أنا مدير أعمال مستر شو .

ـ اسمى فولر . ولقد أرسلنى مستر دومنجيز حيث قال لى : ان لدى المستر شو شيئا يريد ان يقوله لى .

ـ ان ذاكرة المستر شو قد ضعفت . هل لك فى قدح من الشاى ؟

ـ أشكرك لقد تناولت ثلاثة أقداح منه ..

وقلت ذلك كأنه رد على سؤاله وسؤال عما جئت من أجله . وتناول مدير أعمال مستر شو القدح من يدى وسلمه لاحدى الصبيات التى ملأته مرة ثانية . وتناوله منها وتذوقه وقال :

ـ ان هذا الشاى ليس قويا بما فيه الكفاية .

ثم قام بغسل القدح وملأه من اناء آخر وقال :

ـ ان هذا أحسن .

فقلت :

ـ نعم احسن بكثير

« وسلك » مستر شو زوره وبصق فى مبصقة من الصفيح مزينة بأزهار حمراء واخذ الطفل « يتشقلب » بين الصناديق وقفزت القطة من فوق الصندوق الى حقيبة وقال مدير الأعمال :

ـ يحسن أن تتكلم معى . ان اسمى مستر هنج ..

ـ لو امكنك أن تقص على ما جئت لسماعه .

ـ يحسن أن ننتقل الى المخزن فهو أكثر هدوءا •

ومددت يدى الى مستر شو الذى تناولها بشىء من الدهشة ، وأخذ ينظر حوله فى الغرفة كما لو كان يريد أن يجعلنى متلائما معها • ونزلنا من الدرج أنا والمدير الذى قال لى :

ـ حاذر فان « السلمة » الأخيرة غير موجودة •

وأشعل بطارية لتنير لى الطريق ووصلنا الى المخزن بين الأسرة القديمة وأحواض الحمام وقادنى مستر هنج الى ممر جانبى وعندما سار حوالى عشرين خطوة توقف وأضاء البطارية مسلطا على برميل من الحديد وقال :

ـ هل ترى ذلك ؟

قلت :

ـ وماذا عنه •

فأدار البرميل وأظهر العلامة التجارية عليه فقرأت عليه : « ديولكتون » •

فقلت له :

ـ ان هذا لا يعنى شيئا بالنسبة لى •

فقال :

ـ ان لدى برميلين من هذا النوع • لقد عثرنا عليهما فى جراج المستر « فان فان موى » فى أثناء ازالتنا لبعض المخلفات ـ هل تعرفه ؟

ـ لا • لا أظن ذلك •

ـ ان زوجته من أقارب الجنرال ثى •

ـ ما زلت غير فاهم •

ـ هل تعرف ما هذا ؟•

ورفع مستر هنج شيئا من الأرض يشبه عصا منحنية • الداخل أخذت تلمع عندما سلط عليها ضوء البطارية وقال :

ـ هل تعرف ما هذا ؟

فقلت :

ـ لا .

فقال :

ـ انه اداة لصهر المعادن .

وكان يبدو على مستر هنج أنه من الأشخاص الذين يجدون سعادة فى اعطاء الأوامر . وتوقف مدة برهة لكى اظهر جهلى وقال :

ـ هل تعرف ماذا يعنى هذا ؟

فقلت :

ـ نعم بالطبع لكن لا أستطيع ان أتابعك فيما تهدف اليه .

فقال :

ـ ان هذه الآلة صنعت فى الولايات المتحدة بشركة «ديولكتون». اسم تجارى امريكى هل بدأت تفهم ؟

ـ بصراحة . لا .

ـ ان هذه الآلة فيها عيب . ولذا تخلصوا منها . ولكن ماكان يجب أن يتخلصوا منها مع المخلفات وكذلك بالنسبة للبراميل . فلقد كانت هذه غلطة ولقد جاء مدير مستر موى هو نفسه وسأل عنها . ولم استطع أن أعثر له على الآلة ولكنى تركته يأخذ البرميل الثانى لأنى قلت له : انه لا يوجد لدى سواه . وقال هو انه محتاج اليه ليضع فيه بعض « الكيماويات » وبالطبع لم يسأل عن الآلة والا كشف نفسه ولكنه بحث عنها مدة طويلة ، ثم ذهب مستر موى هو نفسه الى المفوضية الامريكية وسأل عن مستر بيل .

فقلت له :

ـ يبدو أن لك قلم مخابرات منظما .

برغم أنى لم أكن أعلم حتى تلك اللحظة ماذا يعنى هذا كله وقال :

ـ لقد طلبت من مستر شو أن يتصل بمستر دومنجيز .
ـ هل تعني أنك استطعت ان تثبت صلة بيل بالجنرال تي ، وهذا لا يعد ذا أهمية فالأمر ليس جديداً والكل هنا يسعى وراء الاخبار .

وقام مستر هنج بضرب كفه في البرميل الأسود وسرى صوت الصدى في المخزن ثم قال :

ـ مستر فولر ، انت انجليزي ومعنى ذلك انك محايد وكنت عادلا معنا وتستطيع أن تؤيد بعطفك اي الجـــانبين ترى انه على حق .

ـ اذا كنت تعني انك شيوعي أو من رجال الفيتنامية فلا تقلق
ـ فأنا لم أذهل لأنه ليس لي لون سياسي .

ـ لو حدث شيء غير سار هنا في سايجون فسوف ينسبون هذا العمل الينا . واللجنة التي أتبعها تريد منك ان تنظر بعـــين العدل الى ما يحدث ولهذا أريتك هذه الأشياء .

فقلت له :

ـ ماذا تعني كلمة « ديولكتون ؟ » انه يبدو لي انها ماركة لبن محفوظ .

قال :

ـ ان لها صلة باللبن المجفف .

وأضاء بالبطارية داخل البرميل . فشاهدت مسحوقا أبيض على القاع وقال هنج :

ـ ان هذا هو البلاستيك الأمريكي .

فقلت :

ـ لقد سمعت شائعات تقول : ان بيل يستورد البلاستيك من أجل لعب الأطفال .

فقال هنج :

ـ انه لا يستورد من أجل اللعب .

فقلت :

ـ ان هذه الآلة تشبه العصا .

فقال :

ـ ان الشكل ليس غريبا .

ـ أنا لا أرى فى أى شىء يمكن أن يستخدم .

فاستدار المستر هنج وقال :

ـ انا أريد « فقط » أن تتذكر ما رايته . وربما فى مستقبل الأيام ستكون لديك فكرة لأن تكتب عما شاهدته هنا الليلة ، ولكن يجب الا تقول لأحد انك شاهدت البرميل فى هذا المكان .

فقلت له :

ـ وحتى هذه الآلة التى تشبه العصا .

فقال :

ـ وعلى الخصوص هذه الآلة .

وانه ليس من السهل على المرء أن يقابل لأول مرة الشخص الذى يقال انه انقذ حياتك . ولم أر بيل طوال المدة التى قضيتها فى المستشفى وكان لغيابه عنى وصمته عن الاتصال بى أثره على ـ فطالما تخيلته ذاهبا الى مسكنى متسلقا للسلالم ثم فاتحا للباب وذاهبا النوم فى فراشى وكنت غير محق فى تخيلاتى هذه . ولذا شعرت بأسفى من سوء ظنى وكان شعورى بالذنب يضيف احمالا الى باقى أحزانى ومنها كتابة الخطاب الذى أرسلته الى زوجتى . وساءلت نفسى : أى اجداد لى أورثونى هذا الاحساس بالذنب . . وقطعا كانوا متخلصين من مثل هذا الشعور فى أيامهم الغابرة عندما كانوا قبائل متفرقة تقتل وتنهب دون احساس بأى ذنب فى تلك العصور الاولى . وساءلت نفسى : هل أدعو منقذى الى العشاء ؟ أو الافضل أن أدعوه الى تناول كأس معى فى بار الكونتننتال . . فلقد كانت مشكلة اجتماعية غير معتادة ، وربما قيمتها تستمد من

الاهمية التى يعلقها الانسان على حياته وشغلتنى هذه المسالة .. هل ادعوه الى الطعام مع زجاجة من النبيذ او اكتفى بدعوته الى شرب عدة كؤوس من الويسكى ؟ ولقد حل هذه المشكلة بيل الذى حضر ونادانى من خلال الباب المغلق حيث كنت نائما خلال فترة الظهيرة الحارة وقد اتعبنى المجهود الذى بذلته فى الصباح لتمرين ساقى على السير ولم اسمعه وهو يقرع الباب .

وسمعته ينادى بصوت عال :

ــ توماس .. توماس .

وخيل الى اننى اسمعه فى حلم وانه يحمل معنى الالم كأنه ينادينى من برج محاصر وهو يصيح من الالم . واحد ينادينى كانما يخاطبنى :

ــ توماس .. توماس .

فقلت له :

ــ اذهب بعيدا عنى يابيل فلا اريد انتنقذنى . لاتقترب منى .

ثم سمعت قرعه على الباب وهو يقول :

ــ توماس ..

غير اننى ظللت مستلقيا فى فراشى كما لو كنت نائما فى حقل الارز فى تلك الليلة وهو العدو الذى يريد موتى . وفجاة شعرت بأن القرع على الباب قد توقف وان هناك شخصا يتكلم فى همس فى الخارج وانا اكره الهمس «واعتبره» خطرا ولم استطع ان اميز المتكلمين ونهضت من الفراش ببطء مستعينا بالعصا ووصلت الى باب الغرفة التالية وربما سمع المتكلم حركتى فانقطع الكلام ولم احب هذا فسارعت بفتح الباب ، فشاهدت فونجواقفة فى الممر وكان بيل واقفا ويداه على كتفيها كأنما كانا متعانقين وصحت قائلا:

ــ تعاليا .. ادخلا .

فقال بيل :

ــ أنا لم أستطع ان أسمعك صوتى .

فقلت :

ــ لقد كنت نائما فى اول الامر [illegible] الانفراد بنفسى ولـكن حيث انك قد حضرت فادخل .

وقلت لفونج بالفرنسية :

ــ أين عثرت عليه ؟

فقالت :

ــ هنا فى الممر ، لقد سمعته وهو يقرع الباب فأسرعت لكى أفتح له .

وقلت لبيل :

ــ اجلس . هل تريد قدحا من القهوة ؟

فقـــال :

ــ لا ، وانا لا أريد ان اجلس يا توماس .

فقلت :

ــ أما أنا فيجب أن أجلس فساقى تؤلمنى . هـــل تلقيت خطابى ؟

ــ نعم . لقد تلقيته وكنت أود الا تكون قد كتبته .

فقلت :

ــ لــاذا ؟

فقـــال :

ــ لانه مجموعة من الاكاذيب ، انى كنت اثق فيك يا توماس .

فقلت له :

ــ يجب الا تثق فى احد عندما تكون هناك امرأة فى الموضوع

فقـــال :

ــ اذن يجب عليك الا تثق فى بعد الآن ، فسوف احضر الى

هنا من خلف ظهرك عندما اخرج وسوف اكتب خطابات على الآلة الـكاتبة . وربما اكون قد كبرت فى السن يا توماس .

ولـكن كانت هناك دموع فى صوته وبدا لى انه اكثر شـبابا من اى وقت مضى . وتابع بيل كلامه قائلا :

ـ الم تكن تستطيع أن تربح بدون أن تكذب ؟

فقلت له :

ـ لا . أن هذه هى طريقة الأوربيين فى مثل هذه المســائل . وعلينا أن نحتاط لقلة ما فى أيدينا من مؤن . ولابد أنى كنت غبيا فى كتابتى للخطاب . كيف تعرفت على الأكاذيب فى خطابى ؟

فقــال :

ـ أن السبب فى ذلك يرجع الى اخت فونج . فانها تعمل مع جو الآن وقد رأيتها لتوى وهى تعــرف أنهم قد استدعوك الى انجلترا .

فقلت :

ـ لقد فهمت . هل عرفت فونج ؟

فقال :

ـ والخطاب الذى ورد من زوجتك . هل تعرف فونج عنـه شيئا ؟ فلقد رأته أختها .

فقلت :

ـ كيف رأته ؟

فقال :

ـ لقد حضرت الى هنا لرؤية فونج عندما خرجت أنت امس وقد قدمته لها فونج لقراءته وبالطبع لا تستطيع أن تخدعها فهى تقرأ الانجليزية .

فقلت له :

ـ لقد فهمت .

ولم اجد سببا يدعونى الى ان اغضب من احد فانا الذى يجب

ان يغضب منه ، وفونج أعطت اختهـــا الخطاب كنوع من الفخر والاعتزاز ولم يكن ذلك دليلا على عدم ثقتها . وقلت لفونج :

ـ هل عرفت ذلك كله الليلة الماضية ؟

فقـــالت :

ـ نعـــم ..

فقلت لهـــا :

ـ لقد لاحظت عليك بالأمس انك كنت صامتة ، ولـكنك غير غاضبة منى .

فقالت لى :

ـ كان على ان افكر .

وتذكرت أننى عندما استيقظت خلال الليل لاحظت عدم انتظام تنفسها مما يدل على انهـــا غير نائمة ، ووضعت ذراعى حولهـــا وقلت لها :

ـ هل تحلمين ؟

حيث أنها كانت تصاب بالكابوس عندما جاءت لأول مرة لتقيم معى فى شارع كاتينات ، ولكنها بالأمس هزت رأسها ولم تجب وادارت ظهرها . وقال بيل :

ـ الا تستطيع يا توماس أن تشرح لمـــاذا كل هذه الأكاذيب ؟

فقلت له :

ـ بالطبع ان هذا واضح للعيان فأنا اردت ان احتفظ بها

فقـــال :

ـ دون مراعاة «صالحها» فى شىء ؟

فقلت :

ـ بالطبـــع ..

فقـــال :

ـ ان هذا ليس هو الحب ..

فقلت :

ـ ربما لم يكن هو الحب بالنسبة لك يا بيل .
فقـال :
ـ لقد أردت ان احميها .
فقلت له :
ـ ولكن لا أريد ان أحميها فهي ليست في حاجة الى حماية، وكل ما اريده هو ان اراها معي .
فقـال :
ـ ضد ارادتها .
فقلت :
ـ انها لن تبقى بدون ارادتها .
فقـال :
ـ انها لن تشعر نحوك بالحب بعد ذلك .

وكانت أتكلم من «البساطة» الى هذه الدرجة واستدرت لكى انظر الى فونج فوجدت انها قد دخلت غرفة النوم وجلست على السرير وأخذت تطالع في كتالوج مصور عن العائلة المالكة وقلت لبيل :

ـ ان الحب كلمة غريبـة ونحن نستعملها لكى نخفى بها مشاعرنا الحسية نحو امرأة ما ، وهؤلاء القوم في هذه البلاد لا يعانون المشاعر الحسية وأنت سوف تصاب بأذى ان لم تكن حذرا يا بيل .
فقـال :
ـ انني كنت مستعدا لضربك لولا هذه الساق المصابة .
فقلت له :

ـ يجب أن تكون شاكرا لى وكذلك بالنسبة لاخت فونج ، ان لك احوالا غريبة ، اليس كذلك وخاصة اذا كانت الامور لا تتعلق بالبلاستيك .
فقـال :
ـ البلاستيك ؟

فقلت :

ـ انى أرجو من الله أن تكون مدركا لما تفعله . انا اعلم أن دوافعك طيبة فهى دائما حسنة .

وبدا عليه انه متحير ومتشكك ثم قال :

ـ أريد أن أمنحها حياة شريفة ان هذا المكان ينضح براحة الد . ار .

فقلت له :

ـ نحن نقضى على الرائحة بأعواد من الطيب نحرقها . وأعتقد أنك قد وعدتها بثلاجة وسيارة وآخر طراز من اجهزة التليفزيون.
فقـــال :

ـ وكذلك الأطفال اما انت فماذا سوف تقدم لها . فانت لن تصحبها معك الى بلدك .

فقلت له :

ـ لا . لن اصحبها معى فانا لست قاسيا الى هذه الدرجة الا اذا كان لدى الاستعداد لمنحها تذكرة عودة .

فقـــال :

ـ اذن انت تريد أن تبقيها كأداة للتسلية حتى تغادر هـــذه البلاد .

فقلت له :

ـ انها مخلوق آدمى .. يا بيل ،وتستطيع ان تقرر ما هو فى مصلحتها .

فقـــال :

ـ نعم على أساس « خاطىء » ، وهى لا تعدو أن تكون طفلة .

فقلت :

ـ انها ليست بطفلة ، انها أكثر متانة منك ، هل تعرف هذا النوع من الطلاء الذى لا يخدش ، انه قونج .. انها تستطيع أن تواجه حقيقة من امثالنا ، وكل ما فى الأمر أنها سوف تتقدم فى السن،وسوف تعانى متاعب الولادة والجوع والبرد وآلام الروماتيزم

ولكنها لن تعانى أبدا التفكير مثلما نفعل نحن الغربيين ، وهى لن تخدش بل كل ما فى الأمر أنها ستذوى .

وبينمـا كنت اتكلم كنت أرقب فونج وهى تقلب صـفحات الكتالوج واستطعت أن أشاهد الصورة التى تشاهدها وهى صورة العائلة المـالكة ومعها الأميرة « آن » وكنت اعلم انى اخلق شخصية غير موجودة بكلامى هذا مثلما يحاول بيل ان يخلق منها واحدة . فالفرد لايعرف الانسـان الآخر ، وكل الذى استطيع ان اقوله عنها : انها مثلنا تماما وهى لم تمنح ميزة التعبير عن نفسها وهذا كل مافى الأمر ، وتذكرت السنة الأولى التى حاولت أن أفهمها خلالها عندما سألتها ان تقول لى فيم تفكر وتسببت فى ازعاجها عندما غضبت منها بسبب صمتها .

وقلت لبيل :

ــ لقد تكلمت ما فيه الكفاية وعرفت كل ما يمكنك ان تعرفه . ارجو ان تذهب .

فنادى « فونج » فردت عليه :

ــ مسيو بيل ..

وهى تنظر اليه وكان تعبيرها يدل على الثقـة ومضحكا فى الوقت نفسه . وقال بيل :

ــ لقد خدعك .

فاجابته :

ــ انا لا افهم ما تقول .

وقلت له :

ــ اذهب . اذهب الى قوتك الثالثة ويورك هاردنج ومسئولية الديمقراطية ، اذهب هنا لتلعب بالبلاستيك .

وفيما بعد تحققت أنه نفذ كلامى هذا بحذافيره .

***

ثم انى لم أر فيجو الا بعد موت بيل بأسبوعين ، اذ كنت سائرا فى شارع «شارنر» عندما سمعت صوته ينادينى من «النادى» وكان النادى هو المطعم المفضل لدى رجال البوليس الذين كانوا نوعا من التحدى لهؤلاء الذين يكرهونهم . يتناولون الطعام والشراب فى الدور الاسفل على حين يجلس «الزبائن» فى الدور العلوى بعيدا عن متناول القنابل اليدوية التى تلقى ، وانضممت اليه وأمر لى بكأس من الفرموت وقال :

ــ هيا العب على الكأس .

واخرجت الزهر من جيبى وأخذنا نلعب لعبة واحد وثمانين، وفكرت كيف ان مرأى الزهر يعيد الى الانسان ذكرى سنوات الحرب فى الهند الصينية . وفى اى مكان فى العالم عندما أشاهد رجلين يلعبان بالزهـــر تعود بى الذكرى الى هانوى أو سايجون وسط المبانى المخربة فى «فات ديم» وأرى رجال الباراشوت وهم محميون مثل الجرادات بملابسهم الغريبة وهم يحرسون القنوات. وأسمع صوت مدافع المورتار ، وربما اتخيل منظر طفل قتيل .. وكان للعبـــة ناحية حسية معروفة لــكل رجال البوليس وربما اخترعها فيجو وأخذها عنه زملاؤه من الضباط الصغار فكل دور يخسره اللاعب يرفعه درجة فى رتبته العسكرية حتى يصل الى رتبة الكابتن او القومندان ، وربح فيجو الدور الثانى كذلك كما ربح الاول وقال وهو يعد أعواد الثقاب :

ــ لقد عثرنا على كلب بيل .

قلت :

ــ نعـــم .

ــ أعتقد ان الكلب رفض ان يترك الجثة ، وعلى كل فقد ذبحوه فلقد وجدناه على بعد خمسين ياردة ومن المحتمل انه حمل نفسه هذه المسافة .

فقلت :

ــ أمازلت مهتما بهذه الحادثة ؟

فقـــال :

ـ ان الوزير الامريكي مازال يضايقنا ، ونحن لا نعاني هـذه المشاكل والحمد لله عندما يقتل رجل فرنسي ، ولـكنه مثل هذه الحوادث لا تحمل طابع الندرة .

واخذنا نلعب بتقسيم اعواد الثقاب اولا ، ثم شرعنا في اللعب الجدي وكان فيجو ماهرا في رمياته فهو يقذف الزهر بسرعة لكي يسجل الرقم المطلوب ، واصبح لا يملك سوى ثلاثة اعواد ثقاب . اما انا فكنت ارمي اقل الارقام الممكن تسجيلها ودفع نحوي بعودين من الثقاب وعندما تخلص من آخر عود ثقاب معه خاطبني بقوله :

ـ كابتن .

ومعنى ذلك انني خسرت الدور وعلى ان ادفـع ثمن الشراب وناديت الساقي وقلت لفيجو :

ـ هل يهزمك في هذه اللعبة احد ؟

فقـــال :

ـ ليس دائما ، هل تريد ان تنتقم ؟

فقلت :

ـ ليس الآن .. بـــل في مرة قادمة .. انك لمقـــامر ماهر يا فيجو .. هل تلعب لعبة اخرى فيها مغامرة ؟

فابتسم فيجو بتعس . ولامر ما فـكرت في زوجته الشقراء التي تصادق الضباط من مرءوسيه وقال فيجو :

ـ حسنا . ان هناك اللعبة الكبرى .

فقلت له :

ـ اللعبة الكبرى .

فقـــال :

ـ دعنا نحسب المكسب والخسارة . انك لو كسبت فسوف تكسب كل شيء ولو خسرت فانك لا تخسر شيئا .

فتذكرت احد اقوال الفيلسوف باسكال التى يقرم بقـراءتها فيجو .

ـ ان الرابح والخـاسر فى لعبة كلاهما مخطىء . فالطريق الصحيح لا يحتمل المقامرة .

ـ فقال فيجو :

ـ نعم . ولكن عليـك ان تقامر . فانت فى حياتك ليس من الضرورى أن تتبع مثلك العليا يافولر . فانت مرتبط بغيرك مثلنا

فقلت :

ـ انه ليس ارتباطا دينيا .

فقـــال :

ـ اننى لا اقصد الدين بل كنت أفكر فى كلب بيل .

ـ آه ..

ـ هل تتذكر ما قلته لى عن ضرورة تحليل التربة فى مخاليه

فقلت :

ـ يالك من رجل ذكى وأنت تدعى التواضع .

قال :

ـ لقد توصلت الى اشياء لا بأس بها . لقد تعود بيل أن يصحبه كلبه معه عندما يخرج أليس كذلك ؟

فقلت :

ـ اعتقد هذا .

قال :

ـ لأنه كان كلبا ثمينا لم يكن ليتركه وحده .

فقلت :

ـ ان تركه وحده لم يكن من الحكمة .

وتناول فيجو الزهر ووضعه فى جيبه فقلت له :

ـ ان الزهر زهرى يا فيجو .

ـ انا آسف . فقد كنت مشغولا بالتفكير .

ـ لماذا قلت : اننى مرتبط ؟

ـ متى رايت كلب بيل لآخر مرة بافولو .
ـ الله وحده يعلم . فانا لا احتفظ بدفتر لتيد مواعيد الكلاب فيه .

فقـــال :

ـ متى تنوى أن تسافر الى بلدك ؟
ـ انا لا اعرف بالتحـــديد . فانا لا احب أن اعطي رجال البوليس معلومات فان ذلك يوفر عليهم المتاعب .
ـ انى احب أن امر عليك فى بيتك حوالى الساعه العاشرة اذا كنت بمفردك .
ـ سوف ارسل فونج الى السينما .
ـ سوف تكون الحالة « عادية » معها مرة اخرى .
ـ نعم .
ـ غريب هذا . فانا كنت اعتقد انك غير سعيد .
ـ من المؤكد ان هناك اسبابا كثيرة تسبب التعس يافيجو وأنت ادرى بذلك .

فقـــال :

ـ انا .

قلت :

ـ نعم لأنك لست رجلا سعيدا .

قال :

ـ آه . ليس لدى ما اشكو منه . فان منزلا خربا ليس بالمنزل التعس .

قلت :

ـ ما الذى تقوله ؟
ـ انه احد اقوال باسكال مرة اخرى . انه نوع من الجدل لكى تشعر بالكبرياء برغم بؤسك .
ـ ان الشجرة لا يمكن ان تكون تعسه .

قلت :

ـ ما الذى جعلك رجل بوليس يافيجو ؟

قال :

ـ هناك عدة عوامل . فالحاجة الى كسب العيش . والاهتمام بمعرفة احوال الناس وحب الفلسفه .

قلت :

ـ ربما كان من الأصوب لو كنت قسيسا .

قال :

ـ انا لم اقرا كتاب اللائمين فى تلك الأيام الخالية .

فقلت :

ـ امازلت تشتبه فى ؟ اليس كذلك ؟ .. فى أن لى صلة بمقتل بيل .

فوقف على قدميه وشرب ما تبقى من قدح الفرموت وقال :

ـ اننى اريد ان اتكلم معك هذا كل مافى الأمر .

وخيل الى عندما استدار وتركنى انه نظر الى نظرة فيها معنى اكما او كان ينظر الى سجين مطلوب منه القبض عليه لتنفيذ حكم بالسجن مدى الحياة .

وشعرت انى محل للعقاب . وكانما كان بيل عندما ترك بيتى قد حكم على بالقلق لعدة أسابيع . فكل مرة أعود فيها الى المنزل كنت اتوقع المصائب . وأحيانا كنت لا أجد فونيج هناك . وكان من الصعب على أن أقوم بأى عمل حتى تعود من الخارج لأنى كنت دائما اتساءل : هل سوف تعود اولا ؟ . وعندما تأتى كنت اسالها أين كانت ؟ وانا أحاول أن أخفى اللهفة والقلق من نبرة صوتى . وكانت أحيانا تجيبنى بأنها كانت فى السوق أو فى بعض المحال وتقدم لى ما يثبت ذلك من البضائع التى اشترتها او تقدم لى تذكرة السينما التى دخلتها وأحيانا تكون عند أختها حيث اعتقد أنها قابلت بيل .

وفى تلك الأيام كنت أبادلها الحب بوحشية كما لو كنت اكرهها ولكن الحقيقة هى اننى كنت أكره المستقبل وما قد يحمله . فلقد

كانت الوحدة شريكة فى فراشى كل ليلة وفى كل ليلة كنت اضم الوحدة الى صدرى . برغم انها لم تتغير . فلقد كانت تطهو لى ، وكانت تطيع امرى ولكنى اصبحت ابحث كما كنت فى اول معرفتى بها عن عقلها واصبحت اريد ان اقرا افكارها ولكن افكارها كانت مختفية وسط «اللغة» لا استطيع ان اقراها ولم اكن أريد أن استجوبها فأنا لا احب أن اراها تكذب وكنت استطيع ان أدعى ان الأمور بيننا لم تتغير مادامت لا تحدث اكاذيب مفضوحة ؛ ولكن فجاة سيطر على قلقى وسألتها :

ــ متى رايت بيل لآخر مرة ؟

فترددت فى الجواب ، أو انها كانت تريد أن تسترجع ماحدث وقالت :

ــ عندما حضر عنا ..

وفجاة اخذت اهاجم كل ماهو امريكى ، وكان حديثى مملوءا بنقد الأدب الأمريكى .. والسياسة الامريكية والابطال الامريكيين وخيل الى انها قد انتزعت منى لا «بواسطة» فرد بل ان الامة كلها قد اخذت فونج منى . وأصبحت محدثا غير مرغوب فيه عن امريكا حتى مع اصدقائى الفرنسيين الذين كانوا يعطفون على آرائى .. وخيل الى اننى قد خدعت ولكن الخديعة لم تات الا من صديق .

وفى ذلك الوقت حدثت الأحداث المعروفة باسم قنابل الدراجات فبينما كنت عائدا من بار الأمبريال الى الشقة الخالية وفونج فى السينما او مع اختها وجدت مذكرة مدسوسة من اسفل الباب وكانت من «دومنجيز» وكان يعتذر فيها عن انه مازال مريضا ويطلب فيها منى أن أكون موجودا عند ناصية المحل الكبير الذى فى شارع «كاتينا» فى حوالى العاشرة والنصف من صباح اليوم التالى ، وقال :

ــ ان هذا الموعد بناء على طلب المستر « شو » غير انى اشتبهت فى أن المستر هنج هو الذى طلب حضورى .

وكان الامر كله لا يحتمل اكثر من كتابة نصف عمود ، وعمود

نصف فكاهى كذلك ، فالأمر لم يكن يتعلق بالحرب المحزنة الثقيلة الوطأة فى الشمال ولا بهذه القنوات التى تزخر بالجثث الميتة فى اردبتها القاتمة ولا بصوت قذائف المورتار ، ولا بالوهج الساطع لقنابل النابالم ، وظللت منتظرا مدة ربع ساعة بجوار كشك لبيع الزهور عندما مر «لورى» من لوريات البوليس وكان آتيا من ناحية قيادة ادارة البوليس فى شارع كاتينات ونزل رجال البوليس عدوا من السيارة واقتحموا المخزن كما لو كانوا يهجمون على مظاهرة لتفريقها ولم يكن هناك مظاهرة بل دراجات كثيرة ، فكل بناء فى سايجون كان محاطا بالدراجات ولا يوجد فى اية جامعة فى الغرب هذا العدد من الدراجات وقبل أن يكون لدى الوقت الكافى لاعداد آلة التصوير كان المنظر الفكاهى غير الممكن تفسيره قد انتهى .. فقد اقتحم رجال البوليس طريقهم بين الدراجات وخرجوا وقد اخذوا ثلاثة منها وقد حملوها فوق رءوسهم والقوها فى النافورة التى فى الميدان وقبل ان اتقدم لاسالهم عن الحادث كانوا قد عادوا الى سيارتهم وساروا فى شارع بونارد وسمعت صوتا يقول «عملية الدراجات» وكان صوت مستر هنج وسألته :

ـ ما هى العملية ؟ هل هى تمرين ؟ ولماذا ؟

فقال هنج :

ـ انتظر فترة اخرى .

وأخذ بعض المتسكعين يقتربون من النافورة حيث برزت احدى العجلات فوق سطح الماء كأنها تحذير لهم ، وعبر احد رجال البوليس الشارع وهو يصيح ويحرك يديه وقلت لمستر هنج :

ـ دعنا نلق نظرة .

فقال :

ـ يحسن بنا الا نفعل .

ونظر فى ساعته وكانت الساعة الحادية عشرة الا اربع دقائق وقلت :

ـ انك سريع .

فقال :

ـ ان السرعة هى التى تربح .

وفى اللحظة نفسها انفجرت النافورة فوق الطوار وطارت شظية من الرصيف ، وحطمت زجاج احدى النوافذ وسقط الزجاج المتناثر فى الماء ولم يصب أحد بسوء [illegible] الماء والزجاج المتناثر على ملابسنا ، وطارت عجلة احدى الدراجات وأخذت تدور فى الشارع ، ثم توقفت وقال هنج :

ـ لابد انها الحادية عشرة .

وقلت :

ـ ما الامر ؟

فقال هنج :

ـ لقد اعتقدت ان رؤية هذا المنظر يهمك .

فقلت له :

ـ تعال وتناول معى كأسا .

ـ لا . انى آسف يجب أن اعود الى مستر شو ولكن دعنى لاريك شيئا .

وقادنى الى موقف الدراجات حيث فك دراجته وقال :

ـ انظر بعناية .

فقلت :

ـ انها دراجة من نوع رالى .

ـ لا . انظر الى المنفاخ هل يذكرك بشىء ؟

ثم ابتسم باشفاق لعدم فهمى وركب دراجته وسار الى حال سبيله واختفى عن نظرى وهو متجه الى شارع شولون حيث مخزن المهملات ، وسرت أنا الى قيادة البوليس لاحصل على الأخبار ثم تذكرت ان الآلة التى شاهدتها فى مخزن المهملات كانت مشكلة حتى تشبه نصف منفاخ للدراجة . وفى خلال ذلك اليوم فى طول سايجون وعرضها كانت الدراجات تنفجر حيث حل محل المنفاخ قنابل من البلاستيك ركبت مكان الجزء « العادى » من كل منفاخ وذلك فى تمام الساعة الحادية عشرة وهو الميعاد المؤقت لانفجار

القنابل .. ماعدا الدراجات التى تلقى البوليس عنها أنباء وأشك أن مصدرها هو مستر هنج وكانت الانفجارات كلها «بسيطة» .. فقد حدثت عشرة انفجارات وجرح ستة من الأهالى جروحا «بسيطة» ، وكان زملائى من الصحفيين عدا المراسلين من جريدة الشرق الأقصى الذين سموا الحادث باسم « ثورة غضب » يقولون انهم لا يستطيعون شغل حيز فى جرائدهم لنشر الحادث بأكثر من «اعتبارهم» له شيئا باعثا على الفكاهة . وعنوان باسم « قنابل الدراجات » مثير فى الصحف ، وكان الجميع يلقون اللوم على الشيوعيين فى الحادث ، وكنت أنا الوحيد الذى كتبت أن القاء القنابل كان نوعا من الاحتجاج من قبل الجنرال ثى ، وكان هذا مدعاة لاحتجاج ادارة الجريدة التى امثلها فالجنرال ثى ليس مهما لدرجة الكتابة عنه وارسلت رسالة اعتذار الى المستر هنج عن طريق ،ومنجيز فلقد بذلت كل جهدى ورد على مستر هنج ردا مؤدبا وكنت لم أذكر اطلاقا لبيل علمى بعلاقته بالجنرال ثى ، فلقد قلت لنفسى : دعه يلعب بالبلاستك الذى يستورده فربما شغل ذلك ذهنه عن فونج وعلى كل فقد مررت على جراج المستر موى لأنى وجدت نفسى قريبا منه .

وكان المكان صغيرا وغير منظم ، ورايت سيارة فى وسط المكان وغطاؤها مرفوع كأنها حيوان فاتح فمه فى أحد متاحف التاريخ الطبيعى ، وكانت الارض مغطاة بقطع قديمة من الحديد والصناديق القديمة ، فأهالى فيتنام لا يلقون بشىء من المهملات مثلهم فى ذلك مثل الصينيين الذين يستطيعون ان يطهوا بطة واحدة بسبعة اشكال مختلفة بدون ان يلقوا حتى برجل واحدة منها . وتعجبت كيف يمكن أن يلقى هؤلاء بالبراميل وقطع الحديد القديمة حتى تصل الى مخزن مستر هنج ، وربما سرقها أحد الموظفين ليبيعها بقروش قليلة ، او ربما رشا هنج أحد هؤلاء الموظفين ليحضره له . ولم ار احدا فى المكان فدخلته ، وربما ابتعدوا عن الجراج فترة خوفا من حضور رجال البوليس ، ومن المحتمل أن يكون المستر هنج اتصالات بادارة البوليس ولكن حتى لو كان صحيحا فمن المستبعد أن البوليس سوف يهتم ويقوم

بعمل ، فمن وجهة نظرهم يرون أن يترك الاهالى يعتقـــدون أن القنابل كانت من فعل الشيوعيين ، وما عدا السيارة والمخلفات القديمة من الحديد لم يكن هناك مايرى على الارض المصنوعة من الأسمنت وكان من الصعب التكهن بان القنابل قد صنعت فى جراج المســتر موى ، ولم أكن متأكدا كيف يتيسر لانســـان ان يحول المسحوق الأبيض الذى رأيته فى البراميل عند المستر هنج الى بلاستيك ولكن من المؤكد أن طريقـة تحويله الى بلاســتيك كانت معقدة الى درجة لا يمكن معها تحويله الى بلاستيك فى هذا المكان. وحتى « طلمبتى » البنزين اللتين فى الشارع أمام المحل كانتا تشكوان الاهمال . ووقفت فى المدخل ونظرت الى الشـــارع ورأيت تحت الأشـجار فى وســـط الشـــارع الحـلاقين يمارسون عملهم. وشاهدت قطعة من مرآة مثبتة فى احد الأشجار تعكس ضـــوء الشمس ومرت بى فتاة مرتدية قبعة واسعة وتحمل على كتفيهـــا « سبتين » ثبتا فى عمود وهى تسير مسرعة وكان قارىء المستقبل فى الشارع قد وجد « زبونا » وهو رجل عجوز له ذقن أخذ ينظر بصبر ناقد الى قارىء الطالع وهو يقلب بين يديه أوراق اللعب التى يقرأ فيها الطالع . وتساءلت : أى مســتقبل فى عالم الغيب ثمن الاطلاع عليه قرش صاغ ؟.

والحياة فى شارع السوم حياة مكشوفة. فكل فرد هنا يعرف المستر موى ولكن رجال البوليس لم يكن لديهم المفتاح الذى يجعلهم يولونه ثقتهم وكان هذا هو مستوى الحياة حيث يعرف كل سر من الأسرار . ولكن لم يكن فى مقدورك النزول الى هذا المستوى كما يسهل عليك ان تنزل الى الشارع . وتذكرت النسوة العجائز اللاتى يثرثرن امام منزلى فهن كذلك يعرفن عنى كل شىء ولكننى لا أعرف ماذا يعملن .

ودخلت ثانية الجراج حيث قصدت مكتبا صغيرا فى نهـايته ، وهناك وجدت النتيجة السنوية الصينية «العادية» . كما شاهدت مكتبا عليه اوزان مهملة وقائمة بالأســـعار وزجاجة من الصمغ و « ماكينة » جمع ارقام ودبابيس للورق واناء لصنع الشاى وثلاثة

قناجين وعديدا من الاقلام غير المبرية وصورة غير مكتوب عليهـا لبرج ايفيل . وكان هناك باب مغلق فى مؤخرة حجرة المكتب غير أن المفتاح كان موجودا على المكتب بين الأقلام ففتحت الباب ودخلت فوجدت نفسى فى سقيفة فى حجم الجاراج وكانت تحتوى على قطعة واحدة من الآلات بدت لأول وهلة أنها كقفص من الأسلاك والعصى المتشابكة وبداخلها « تعاليق » كأنما هى قفص اعد لطائر غير ذى جناحين . وخيل الى انها مربوطة بقطعة قديمة من الثياب وكان يبدو أن الأشرطة القديمة قد استخدمها المستر موى قبل ذلك فى التنظيف ووجدت على الاشرطة اسم صانعها فى مدينة ايون وارقاما مسلسلة عليها ولا اعرف معنى الرقم المسلسل وأدرت التيار الكهربى ودبت الحياة فى « الماكينة » القديمة وكانت العصى المركبة فى الآلة لها غرض . وهى اشبه برجل عجوز يستجمع كل قواه الباقية ليضرب بها معصمه الى اسفل وبدت لى كانهـا آلة للضغط او للطباعة وفى الهند الصينية حيث لا « يعتبر » شىء غير ذى منفعة برغم مرور سنوات وسنوات على اختراعه فان هـذه الآلة القديمة التى عفا عليها الزمن كانت لا تزال مستعملة . ونظرت الى الآلة بدقة فوجدت بها بقايا مسحوق ابيض . وفكـرت فى « دبولكتون » وشىء قريب الشبه من اللبن ولم يكن هنـاك فى المكان أى برميل او عصى .

وعدت ثانية الى حجرة المكتب والجـراج واحسـست برغبتى فى مداعبة السيارة القديمة بالربت عليها . فامامها مدة كبـيرة تنتظرها ولكن فى يوم ما سوف تستخدم فى صـنع شىء - أما المستر موى ومعاونوه فهم الآن فى مكان ما وسط حقـول الارز متجهون الى الجبال المقدسة حيث يوجد مركز قيادة الجنـرال «تى» وتخيلت أننى بعيد عن الجراج فى مكان ما وسط حقـول الارز حيث التجأت الى البرج فى تلك الليلة واننى انادى مستر موى الذى أدار رأسه الى من وسط « سنابل » الأرز .

وعدت سيرا الى المنزل حيث وجدت النسوة العجـائز اللاتى ماكدن يريننى حتى اخذن فى ثرثرتهن المعتادة التى لا افهم لهـا

معنى تحطم قيمي لثرثرة الطيور ولم تكن فونج بالمنزل بل وجدت مذكرة منها تقول انها ذهبت عند أختها وتمددت على السرير فكنت لا ازال أشعر بالتعب بسرعة منذ جرحي في تلك الليلة في البرج وعندما استيقظت وجدت ساعتي تشير الى الواحدة وخمس وعشرين دقيقة وادرت رأسي متوقعا ان أجد فونج نائمة ولكن الوسادة كانت خالية ولابد أنها غيرت غطاء المخدة في هذا اليوم حيث ان برودة « الغسيل » كانت لا تزال ظاهرة عليه وقمت وتوجهت الى الدرج الذى تضع فيه « الايشاربات » الخاصة بها فلم اجدها . وتوجهت ناحية رف المكتب فلم أجد صورة العائلة المالكة البريطانية كذلك فلقد اخذت مهرها معها . وفي لحظات الصدمة يكون هناك الم قليل . فلقد بدأ الألم حوالى الساعة الثالثة عندما شرعت ارسم خطوط الحياة الجديدة التى على أن أحياها وأستعيد ذكريات الماضى استعدادا لمحوها . وحاولت استعادة الذكريات غير السعيدة فلقد كنت متمرنا ولقد مرت بى هذه التجربة من قبل وأعرف ماذا يجب أن افعله ولكنى كنت أكثر تقدما فى السن واحسست انه ليس لدى النشاط الكافى لاعادة البناء من جديد .

وتوجهت الى المفوضية الامريكية وسألت عن بيل وكان من الضرورى أن املأ استمارة على الباب واقدمها لرجل البوليس الحربى . الذى قال لى :

ـ أنت لم تكتب سبب الزيارة .

فقلت له :

ـ انه يعرف .

فقال :

ـ هل حدد لك ميعاداً من قبل .

فقلت :

ـ تستطيع أن تقول ذلك لو أحببت .

فقال :

ـ أن هذا يبدو لك سخيفا ولكن علينـــا أن نكون فى منتهى الحذر فكثير من الاشخاص الشواذ يحضرون الى هنا .

فقلت :

ـ لقد سمعت ذلك .

فحرك «اللبانة» التى يمضغها الى الناحية الأخرى من فمه ودخل الصمت وانتظرت ولم يكن لدى فكرة عما سأقوله لبيل . فهذا شىء لم اقم به من قبل وعاد رجل البوليس وقال :

ـ اعتقد انه يمكنك الصعود الى الغرفة ١٢ أ الدور الأول .

وعندما دخلت الغرفة رأيت أن بيل لم يكن موجودا . وكان جو جالسا خلف المكتب وجو هو الملحق الاقتصادى . ولم أستطع تذكر اسمه الاول .. وأخذت اخت فونج ترقبنى من خلف «ماكينة كتابة . وسألت نفسى : هل هذه النظرة التى تحدجنى بها هى نظرة الانتصار ؟

وقال جو :

ـ تعال . تعـــــال يا توم .. اننى مسرور لرؤيتك كيف حال ساقك ؟ ونحن لم نتعود زيارتك لنا فى مكتبنا المتواضع .خذ كرسيا وقل لى : ما هو رأيك فى سير الهجوم الجديد على القوات الثائرة ؟ ولقد رأيت جرانجر فى الكونتننتال البارحة وقد سافر الى الشمال مرة أخرى ان هذا الولد مهتم بعمله . ما هى الشائعات فى البلد يا توم . فأنتم معشر الصحفيين تجعلون آذانكم مفتوحة لكل شىء . آسف بخصوص ساقك . فلقد قال لى آلدن .

فقلت :

ـ أين بيل ؟

قال :

ـ انه ليس فى المكتب هذا الصباح . وأعتقد انه فى منزله فهو يقوم بعمل كثير فى منزله .

ـ انا أعرف اى عمل يقوم به فى منزله .

ـ انه ولد « كفء » ـ ماذا تقول ؟

فقلت :

ـ على اى حال ، انا أعرف شيئا مما يقوم به فى منزله .
قال :
ـ انا لا افهم يا توم . فأنا جو البطىء ـ وهـــذا هو طبعى . ودائما كنت هكذا وسوف أظل هكذا .
قلت :
ـ انه مع صديقتى . أخت التايبست التى تعمل لديك .
قال :
ـ انا لا اعرف ماذا تقصد .
فقلت وانا أومىء الى اختها :
ـ اسألها . لقد رتبت هى ذلك . لقد أخذ منى بيل صديقتى .
فقال :
ـ اسمع يا فولر . لقد ظننت أنك قدمت من اجل عمل ، وانت تعلم انه لا يمكننا الكلام فى مثل هذا فى المكتب .
قلت :
ـ لقد جئت لمقابلة بيل واعتقد انه مختبىء .
قال :
ـ انت آخر رجل يمكن ان يقول هذا عن بيل بعد ما فعله من أجلك .
قلت :
ـ آه ، طبعا طبعا . لقد انقذ حياتى . أليس كذلك . ولكننى لم اسأله قط ذلك .
قال :
ـ لقد انقذ حياتك مع تعريض حياته للخطر . فان لهذا الشاب قوة ، خارقة .
فقلت :
ـ انا لا اهتم بقوته الملعونة .
قال :
ـ ان علينا أن نؤدى عملنا . وهناك تقرير عن انتاج المطاط .
قلت :

ـ لا تقلق . فاذا ذاهب . ولكن قل لبيل اذا خاطبك بالتليفون انني قد جئت وقد يظن انه من الادب أن يرد لي الزيارة .

ثم قلت لأخت فونج :

ـ ارجو أن تكوني قد احضرت شهودا لحضور التسوية النهائية لموضوع اختك واحسب انك احضرت القنصل الأمريكي ومندوبا من الكنيسة لكي يشهدوا على انضمامها لبيل .

وخرجت الى الممر ووجدت بابا مكتوبا عليه «للرجال» فدخلت واغلقت على نفسي الباب واسندت رأسي الى الحائط البارد واخذت ابكي . ولم يكن قد سبق لي أن بكيت قبل الآن . وحتى «دورات المياه» عند الأمريكيين كانت مكيفة الهواء . وسرعان ما جفف الهواء المكيف الدموع في عيني كما جفت الغصـــة في فمي والألم في جسدي .

وتركت الامور في يد « دومنجيز » ورحلت الى الشمال . ففي مدينة هالـيونج كان لي أصدقاء في سرب الطيران « ماسـكوني » وكنت اقضي ساعات في بار المطار أو العب لعبـــة « فونج » على الحشيش الأخضر في الخارج ورسميا فانني كنت مقيما في الجبهة وبذلك كنت على قدم المساواة مع جرانجر ولكن وجودي في الشمال لم يكن ذا فائدة تذكر لجريدتي مثلما حدث في « فات ديم » ولكن اذا تعرض المرء للكتابة عن الحرب فان احتـرام النفس يتطلب أن يشارك بين حين وآخر في اخطارها ولم يكن الأمر سهلا في المشاركة في أخطار الحرب . فقـــد جاءت الأوامر من هانوى بألا أصحب الطيارين في غاراتهم الا اذا كانت غارات افقية تكون فيها الطائرة فوق مرمى المدافع الرشـــــاشة . وهي رحـلة لاتعـــــدو أن تكـــون رحلـــة بالأتوبيس في ســـلامتها وامنهـــا عدا ما قد يصـــيب الطـــائرة من خطـــأ في القيـــادة أو اصـــابة الماكينة بعطب وكنـــا نطير على حسب جدول معـــين ونعـــود على حسب جدول معين . اما حمولة الطائرة من القنابل فكانت تلقى من الارتفاع الشـاهق على احد « الكبارى » أو المستودعات وتتصـاعد أعمدة الدخان ثم نعود في الميعاد نفســه لنتناول فاتحات «الشهية»

قبل تناول الطعام وفي صبيحة احد الأيام كنا في ميس الضباط في البلدة وكنت اتناول البراندي مع الصودا بصحبة ضابط شاب كان يرغب رغبة شديدة في زيارة البلدة عنـــدما جاءت الاوامر بالقيام بطائرة وسألني :

ـ هل تحب ان تأتي معي ؟

فقلت :

ـ نعم .

فحتى الغارات الافقية كانت وسيلة لقتل الوقت وقتل الأفكار. وبينما كنا متجهين الى المطار في سيارة قال لي :

ـ ان هذه غارة رأسيه .

فقلت له :

ـ كنت اظن انني ممنوع من المصاحبة في الغارات الراسية .

قال :

ـ لا بأس . مادمت لا تكتب شيئا عنها . وسوف يمـكنك في هذه الغارة رؤية جزء من البلاد مجاور للصين لم تره قبل ذلك .

فقلت :

ـ لقد كنت اعتقد ان الأمور هادئة في هذا الجزء من البـلاد وأن الفرنسيين مسيطرون هناك سيطرة تامة .

فقال :

ـ لقد كان هذا فيما مضى . لقد احتل الفيتناميون هذا المكان منذ يومين ورجال البارشوت التابعون لنا على بعد عدة ساعات من المكان ونحن نريد ان يبقى الفيتناميون مختبئين حتى يتيسر لرجال البارشوت اعادة احتلال المواقع . وهذا يعني الهجـــوم الناطس والضرب بالمدافع الرشاشة . ونحن ليس لدينا سوى طائرتين للقيام بالمهمة . هل شاهدت القذف المنقض قبل ذلك ؟

فقلت له :

ـ لا .

قال :

ـ انها عملية غير مريحة اذا لم تكن قد تعودتها .
وكان سرب « ماسكونى » لا يملك الا طائرات قاذفة صغيرة من طراز ب ٢٦ ـ وكان الفرنسيون يطلقون عليها اسم « العاهرة » وذلك لقصر أجنحتها وعدم وجود معين مرئى لها فى طيرانها ، وركبت الطائرة خلف الملاح فوق كرسى لا يزيد على كرسى الدراجة وركبتى ملتصقة بظهر ملاح الطائرة وصعدت بنا الطائرة ببطء فوق النهر الاحمر ـ وكان النهر الأحمر فى هذه الساعة لونه احمر فعلا . ونظرنا الى النهر كما سبق أن نظر اليه مستكشفه الأول من مئات السنين فى وقت الشفق وقد خضبت الشمس الماء بين الضفتين بلونها الشبيه بلون الدم ـ وعلى ارتفاع تسعة آلاف قدم تحولنا ناحية النهر الأسود . وكان فعلا لونه أسود مملوء بالظلال وكان منظره جليلا عظيما وقد أحاطت به التلال والغابات والمهاوى . ولو اسقطنا فصيلة من الرجال فى هذا الفضاء الشاسع لكنا كمن اسقط بضعة قروش وسط حقل واسع ورأينا امامنا طائرة صغيرة . وحلقنا مرتين حول احد الأبراج للحراسة وحول القرية الخضراء ـ واستدار الى الطيار وغمز بعينيه . وكان اسمه «ترون» وامامه فى عجلة قيادة الطائرة كانت توجد الازرار التى تطلق المدافع الرشاشة وتقذف القنابل وأحسست بأحشائى تتقلب داخل بطنى ونحن نتخذ مركزنا لبدء القذف الفاطس وهو الاحساس نفسه الذى يخامر المرء عند اول خطوة يتعلمها فى الرقص اوفى اول مادبة عشاء يحضرها واول حب ينبض به قلبه وتذكرت يوم السباق الكبير فى ويمبلى عندما لا يكون هناك فائدة من التراجع وتحس بانك موكل يخبرنك . واستطعت أن أقرأ على مؤشر الارتفاع اننا على ارتفاع ثلاثة آلاف متر عندما بدأنا الانقضاض وأصبحت كل أعصابنا مشدودة والتصقت بظهر الملاح نتيجة لانقضاض الطائرة واحسست كأن شيئا ثقيلا جدا يضغط على صدرى . ولم انتبه الى القنابل وهى تقذف أو الى صوت المدافع الرشاشة وهى تنطلق من الطائرة الى الأرض وامتلأت الطائرة برائحة البارود وانزاح الضغط من فوق صدرى عندما أخذنا فى الارتفاع ثانية . وشعرت كأن معدتى قد سقطت من ناحية الارض . ولمدة اربعين ثانية انمحت ذكرى

بيل من خاطرى وحتى شعورى بالوحدة لم يعد موجودا .
وشاهدت الدخان ينبعث من الحرائق التى شبت نتيجه للقدف من النافذة الجانبية للطائرة ونحن نرتفع فى هيئة قوس وقبل ان نبدا الانقضاض للمرة الثانية شعرت بالخوف من ظهورى بمظهر الخائف والخوف من ان يصيبنى الغثيان فالفظ ما فى أحشائى على ظهر الملاح ، والخوف من الا تحتمل رئتاى الضعيفتان من الكبر كل هذا الضغط عليهما . وبعد الانقضاض العاشر كان كل ما اشعر به هو الضيق من ان المسالة قد طالت اكثر مما يجب وان الوقت قد حان لنعود من المهمة . ومرة أخرى هربت الطائرة من نيران المدافع الرشاشة وارتفعت أعمدة الدخان وكانت القرية التى نقذفها محاطة بالجبال من كل ناحية وكان علينا فى كل مرة نضربها أن نقترب من خلال ثغرة معينة فى هذه الجبال . ولم يكن أمامنا طريق آخر لنغير زاوية هجومنا . وعندما قمنا بالانقضاض الرابع عشر شعرت بانى قد تخلصت من الخوف من الظهور بمظهر الضعفاء . وفكرت فى آن كل ما عليهم لكى يصيبونا هو وضع مدفع ليغطى هذه الثغرة التى نهاجمهم منها . وربما لم يكن لديهم مدافع كافية . وانتهينا من القذف الذى استغرق اربعين دقيقة كنت خلالها حرا من أفكارى الخاصة وكانت الشمس قد غربت عندما استدرنا عائدين الى القاعدة ولم يعد النهر الأسود اسود فى لونه وتحول لون النهر الأحمر الى لون الذهب ثم انقضت الطائرة مرة اخرى ناحية النهر وهى تكاد تزحف فوق حقول الأرز وقد اتجهت مقدمتها كما تتجه الرصاصة المنطلقة ناحية زورق فى الماء وانطلق المدفع مرة واحدة وتناثرت أشلاء الزورق الممزقة ولم ننتظر لكى نرى ضحايانا يصارعون الماء فى سبيل البقاء بل ارتفعت بنا الطائرة لتعود الى القاعدة وحل بى الشعور نفسه الذى حل بى عندما رايت الجثث تملأ الماء فى « فات ديم » وقلت لنفسى :« انى اكره الحرب » فلقد كان هجومنا على الزورق مرعبا . فقد كنا مارين فحسب فى طريق العودة وفجاة طالقة واحدة من المدفع واصبح الزورق فى خبر كان . ولم يكن هناك من يرد علينا النيران وتركناهم يصارعون الموت من بقى منهم واضفنا الى القتلى فى هذا

اليوم حصننا منهم ووضعت الميكروفون على أذنى وقال لى الكابتن « ترون » :

ــ سوف نقوم بجولة صغيرة فان منظر شمس المغيب رائعة على الحقول ويجب الا تفوتك ».

وقال ذلك بعطف كما لو كان مضيفا يريد أن يطلع ضيفه على جمال ضيعته . وطرنا مسافة مائة ميل نتبع الشمس فى غروبها .

وفى مهنته فان الراحة بالنسبة له لا تذهب الى أبعد من ذلك الذهاب الى حان للشرب . واستلقينا كل منا فى حجرة صغيرة منخفضة الجدار وسط صف من الحجرات المماثلة ولم تكن حجرة بالمعنى المفهوم بل مكان على قدر اضطجاع المرء . به حائطان لا يزيد كل منهما على ثلاثين سنتيمتر وأعد صاحب المحل الصينى الشراب . ولم اكن قد شربت منذ تركتنى فونج . وعلى مقربة منا كان هناك امرأة ذات ساقين طويلتين رائعتين ، كأنهما لوحة من لوحات ماتيس قد انتهت من الشراب وراحت تطالع فى مجلة نسوية وقد جمعت ساقيها على صدرها وكان بجوارها رجلان صينيان فى منتصف العمر يتناولان الشاى يتناقشان فى شئون العمل وبجوارهما كئوس الشراب التى انتهيا منها وقلت «لترون» :

ــ هذا الزورق .. هل كان هناك ما يبرر ضربه ؟ .

فقال ترون :

ــ من يدرى .. ففى هذا المكان من النهر لدينا تعليمات بضرب كل ما نراه .

وشربت اول كاس . وقال « ترون » :

ــ ان ما حدث اليوم ليس أسوأ ما حدث لى ففوق القرية كان من الممكن أن يسقطونا . وكان الخطر بالنسبة لنا كالخطر بالنسبة لهم والذى لا اقبله هو القذف بقنابل النابالم من ارتفاع ٢٠٠٠ قدم ونحن آمنون فى اثناء القذف . هل رأيت الغابة وهى تحترق ؟ ».

الله وحده يعلم ما الذى يمكن ان تراه من فوق الارض . فالمساكين تحرقهم القنابل احياء وقنابل النابالم يسرى لهيبها كما يسرى الماء .

فقلت له :

ـ وهذا الزورق ؟ »

قال :

ـ نعم هذا الزورق كذلك »

واخذ يرقبنى وانا امد يدى لاتناول الكاس . وقال :

ـ انا احسدك على وسائلك للهرب من الحقيقة »

فقلت له :

ـ انت لا تعلم ماذا احاول ان اهرب منه . انها ليست الحرب فهى لا تهمنى فى شىء وانا غير مشترك فيها »

ـ سوف تشاركون فيها جميعا فى يوم ما »

قلت :

ـ ليس أنا »

فقال :

ـ انت ما زلت تعرج »

قلت :

ـ ان لهم الحق فى اطلاق الرصاص على . ولكنهم لم يكونوا يقتلون ذلك بل كانوا يهدمون برجا للحراسة . وعلى المرء أن يتجنب فصائل الهدم حتى ولو كانوا يعملون فى ميدان بيكاديلى »

ـ يوما ما سوف يحدث شىء وتنضم الى احد الجانبين »

ـ لا .. فانا عائد الى انجلترا »

فقال :

ـ بسبب هذه الصورة التي أرتني اياها مرة ! .

ـ لا .. لقد مزقت هذه الصورة . فلقد تركتني صاحبتها .

قال :

ـ انا آسف .

قلت :

ـ هكذا تحدث الاشياء . فالانسان يترك الناس أحيانا ، ثم يتحول التيار فيتركونه ثم . وفي رأيي ان هذا يجعلني اعتقد في العدالة .

قال :

ـ ان كذلك . ففي أول مرة اسقطت فيها قنابل النابالم لم أفكر في ان هذه القرية التي ولدت فيها . وهل القرية التي يعيش فيها مسيو « ديبوا » صديق ابي ؟ وكذلك الخباز . فقد كنت مشغوفا جدا بخباز القرية وهو الآن يعدو وسط لهيب نيران القنابل التي القيتها . ان رجال حكومة فيشي لم يضربوا بلادهم بالقنابل ولكني أشعر بأني أسوأ حالا منهم .

قلت :

ـ ومع ذلك فانت تواصل عملك الذي تكرهه .

قال :

ـ ان ما أشعر به ان هي الا حالات عارضة عندما استخدم النابالم . وباقي الوقت أشعر باني ادافع عن أوربا . وانت لا تشعر بأن رجال الجانب الآخر يفعلون أفعالا في الدرجة نفسها من الشدة . وعندما تراجعوا عن هانوي سنة ١٩٤٦ لقد عاقبوا المئات من أبناء جلدتهم الذين ظنوا انهم قد عاونونا .

قلت :

ـ وبسبب هذا فانا لاأريد ان أشارك في هذه الحرب .

قال :

ـ ان المسالة ليست مسالة عقل أو عدالة . فنحن جميعا نشارك فى الأمر تحت ظروف عاطفية معينة ثم نجد أنفسنا غير قادرين على الخلاص والحرب والحب منذ القدم تجدهما متقاربين .

ونظر بحزن الى حيث ترقد المرأة التى تبدو كلوحة من لوحات ماتيس . وقال :

ـ انا لا اريد أن يتغير الأمر عما هو عليه . فهناك فتاة أعرفها أصبحت مشتركة فى الأمر بسبب والديها فالأم من أهل البلاد والأب فرنسى . وما الذى يحمله المستقبل لها عندما نترك الميناء فى أيدى العدو . ان فرنسا ليست الا نصف وطن لها .

فسألته :

ـ وهل سيسقط ...

ـ انك صحفى .. وانت تعرف أكثر منى اننا لن نستطيع ان نفوز وانت تعلم أن الطريق الى هانوى يقطع كل ليلة وتزرع فيه الالغام . وانت تعلم اننا نفقد فى كل سنة دفعة كاملة من خريجى كلية سان سير .

وكنا قد أوشكنا ان نهزم سنة ٩٥٠ ـ ولقد أمكن الجنرال دى لاترتاسينى أن يمنحنا سنتين من الفخار . ذلك كل ما فى الأمر . وعلينا أن نواصل القتال حتى يأمرنا السياسيون بالتوقف . ومن المحتمل أن يتفقوا على الأسس التى كان من الممكن أن يتفقوا عليها فى « البداية » جاعلين من كل هذه السنوات عبثا لا طائل تحته .

وكان وجهه القبيح الذى غمز لى به قبل انقضاضه على هدفه يحمل نوعا من شدة المحترف كأنه قناع من اقنعة عيد الميلاد حيث تبدو عينا الطفل من خلال ثقوب فيه .

وقال :

ـ انت لا تستطيع أن تفهم هذا العبث يافوتر لانك لست واحد منا .

قلت :

ـ ان هناك اشياء اخرى فى حياة الانسان تجعلّ من السنوات ومرورها عبثا لا طائل وراءه .

فوضع يده على ركبتى بنوع من العطف والحماية كأنما هو الأكبر سنا وقال :

ـ خذها معك الى الوطن »

الفصل الخامس

لقد كان الأمر غريبا عند عودتى الى سايجون دون أن يكون أحد فى انتظارى وفى المطار تمنيت لو أن هناك مكانا آخر أطلب من التاكسى ان يوصلنى اليه غير سكنى فى شارع كاتينات . وقلت لنفسى : « هل الى أصبح أقل مما كان عليه قبل رحيلى ؟ » . وحاولت ان أجعل نفسى تعتقد ذلك . وعندما وصلت الى المنزل لاحظت أن الباب مفتوح وملأ نفسى شعور بالأمل الكاذب وحتى أصل من الباب كان من الممكن أن يظل الأمر حيا . وسمعت صوت كرسى يتحرك وعندما وصلت الى الباب رأيت زوجا من الأحذية لغير امرأة ودخلت بسرعة وكان هو « بيل » الذى رفع جسمه الضخم من فوق الكرسى الذى اعتادت فونج أن تجلس فيه وقال :

ـ هالو . توماس .

ـ هالو بيل .. كيف دخلت هنا ؟ .

فقال :

ـ لقد قابلت دومنجير الذى كان آتيا بيريدك وطلبت منه أن يتركنى انتظر .

ـ هل نسيت فونج شيئا .

ـ لا .. ولكن جو قال لى انك ذهبت الى المفوضية وفكرت فى انه أسهل أن نتكلم هنا .

قلت :

ـ نتكلم عن ماذا .

فبدا عليه انه قد فقد تفكيره كصبى طلب منه أن يتكلم فى احتفال فى المدرسة ففقد القدرة على تخير الكلام اللائق . ثم قال :

ـ لقد كنت مسافرا .

ـ نعم . وأنت .

ـ آه .. انى كنت انتقل هنا وهناك .

ـ اما زلت تلعب بالبلاستك ؟ .

فابتسم ابتسامة غير سعيدة وقال :

ـ ان خطاباتك موجودة هنـا .

وكنت استطيع أن ارى من أول نظرة انه ليس هناك شىء يثير اهتمامى فخطاب من الجريدة فى لندن وخطابات يبدو أنها مطالبات بسداد ديون على . وخطاب آخر من المصرف الذى أتعامل معه . وقلت لبيل :

ـ كيف حال فونج ؟ .

فقال :

ـ أوه .. انها بخير .

وضم شفتيه كما لو كان قد تكلم اكثر مما يجب . وقلت له :

ـ اجلس يا بيل واسمح لى بأن أنظر فى البريد فهذا الخطاب من ادارة الجريدة .

فتحت الخطاب وكان من رئيس التحرير ويقول :

انه راعى ما جاء فى خطابى الأخير وبالنسبة لتأزم الموقف ونمقده فى الهند الصينية بعد موت الجنرال دى لاتر وتراجع القوات الفرنسية من « هوابنه » فانه يتفق معى فى اقتراحاتى وأنه قد عين محررا للشئون الخارجية بالجريدة بصفة مؤقتة وانه يوافق على بقائى فى الهند الصينية مدة عام على الاقل .

وقال فى خطابه :

« سوف يبقى مقعد المحرر الخارجى دائما فى انتظارك » .

وكان يعتقد اننى اهتم بالوظيفة التى عرضها على بالجريدة فجلست امام بيل وقرات الخطاب مرة اخرى الذى وصل متاخرا

بعض الشيء . ولفترة وجيزة كان لدى شعور من استيقظ لتوه قبل ان يتذكر الاحداث . وقال بيل :

ـ هل الأخبار سيئة ؟ .

ـ لا ..

وقلت لنفسى : ان الامر لن يكون فيه فرق على كل حال .. فان الاقامة لمدة سنة لا يمكن ان تساوى عرضا بالزواج . وسألته :

ـ هل تزوجت بعد ؟ .

فقال وقد احمر وجهه وكان ذا قدرة عجيبة على الخجل :

ـ لا .. والحقيقة اننى أحاول الحصول على اجازة خاصة لي يمكننا ان نتزوج فى الوطن زواجا صحيحا .

وقلت :

ـ هل يكون الزواج اكثر صحة لو تزوجتما فى الوطن ؟ .

فقال :

ـ حسنا .. انه من الصعب ان اقول لك انت هذه الأشياء يانوماس ولكنه نوع من الاحترام . فان أبى وامى سوف يكونان حاضرين فهى فرد جديد سينضم للعائلة . وهذا شىء مهم جدا بالنسبة للماضى .

فقلت له :

ـ الماضى .

ـ انت تعرف ماذا اعنى . فانا لا اريد أن اتركها خلفى وقد لوثتها شائبة .

ـ هل ستتركها هناك عند عودتك ؟ .

ـ اعتقد هذا .. فان أمى سيدة رائعة . وعليها أن تريها المكان وتقدمها الى الجيران والمعارف . وانت تعلم ذلك . انه نوع من ادماجها فى الحياة وهى بذلك تساعدها على اقامة بيت لى .

ولم آكن اعرف هل أرثى لفونج اولا ؟ . فلقد كانت تأمل رؤية

ناطحات السحاب ، وتمثال الحرية . ولكن لم يكن لديها فكرة عما يمكن ان تلاقيه هناك : البروفسور ومسز بيل واناقة السيدات . هل سيعلمونها لعبة « الكافاستا » . وتذكرت رؤيتى لها فى اول ليلة فى ملهى « العالم الكبير » فى ثوبها الابيض وهى تتحرك برشاقة وقد بلغت من العمر ثمانية عشر ربيعا . وفكرت فيها منذ شهر واحد وهى تساوم البائع على ثمن اللحم فى محل الجزارة الذى بشارع « السوم » هل ستحب المحال الصغيرة البيضاء الخاصة « بالبقالة » فى « نيوانجلند » بامريكا حيث تلف حتى الخضراوات فى ورقة سلوفان . وبما يعجبها ذلك . وبغرابة وجدت نفسى اقول له ما كان بيل يقوله لى منذ شهر مضى :

ـ كن صبورا معها يا بيل وسهلا . ولا تحاول ان تفرض عليها الاوضاع . فهى قد تجرح وتتألم مثلك ومثلى تماما .

ـ بالطبع .. بالطبع يا توماس .

ـ انها تبدو صغيرة وقابلة للكسر وهى ليست كنسائنا فى الغرب ولكن لا تعاملها على انها شىء للزينة .

ـ ان هذا مضحك يا توماس . كيف تحولت الاشياء . فلقد كنت اخشى هذه المقابلة وظننت انك ستكون عنيفا .

ـ لقد كان لدى الوقت للتفكير هناك فى الشمال . وكانت هناك امراة . واله لشىء جميل ان تذهب معك فونج . ربما كنت انا تركتها مع شخص مثل جرانجر .

ـ وهل نستطيع ان نظل اصدقاء يا توماس ؟ .

ـ نعم .. بالطبع .. ما عدا انى افضل الا ارى فونج ثانية . وهنا ما يكفى لتذكيرى بها ويجب ان ابحث عن بيت آخر عندما يكون لدى الوقت .

فاعتدل فى جلسته ثم وقف وقال :

ـ انا فى غاية السرور ياتوماس . ولا استطيع أن أعبر لك عن سرورى . ولقد قلت ذلك قبل هذه المرة وهو اننى كنت أود لو كان شخصا غيرك .

ـ انا مسرور . انه انت يا بيل .

وكانت المقابلة على غير ما توقعت . وكانت سذاجته التى تضايقنى منه قد فعلت فعلها فى نفسى . وبحكم من اعماق نفسى قد انتهيت الى صفه ، فلقد قارنت مثاليته وافكاره غير الناضجة القائمة على أعمال يورك هاردنج بواقعيتى الجافة ، فوجدت انه برغم معرفتى للحقائق فان له الحق كذلك فى أن يكون شابا وان يخطىء وانه افضل منى بالنسبة لفتاة صغيرة تقضى معه حياتها .

وتصافحنا . ولكن نوعا من الخوف لم يكتمل بعد فى نفسى جعلنى اصحبه الى اول السلم وأناديه . وربما كان هناك فى أعماق الانسان متنبىء بالاحداث مثلما يكون فى نفسه حكم على الاشياء حيث يقرر حكمه الصحيح على الافعال . وقلت له :

ـ بيل .. لا تعتمد كثيرا على اقوال يورك هاردنج

فرفع بصره الى من اول درجة فى السلم وقال :

ـ يورك ؟ .

فقلت :

ـ اننا نحن ـ الانجليز المستعمرين القدامى ـ الذين سبقوكم فى هذا المجال يا بيل . وقد تعلمنا حقيقة واحدة وهى الا نلعب باعواد الثقاب وهذه القوة الثالثة التى تتكلم عنها جاءت من خلال صفحات كتاب ليس الا .

وبدا لى كانه ينظر الى من خلال فتحة صندوق بريد ليرى من الذى يتكلم وبعد أن رآه اغلق غطاء فتحة الصندوق لكيلا يرى المتكلم .

وقال وعيناه غير مرئيتين :

ـ انا لا اعرف ماذا تقصد يا توماس .

ـ قنابل الدراجات هذه . لقد كانت مزاحا جميلا برغم ان رجلا فقد قدمه . ولكنك يابيل لا يمكنك أن تثق بالجنرال ثى . فان أمثاله لن ينقذوا الشرق من الشيوعيين ونحن نعرف أمثالهم ».

فقال :

ـ نحن ؟ .

فقلت له :

ـ الاستعماريين القدامى .

ـ كنت اظن انك لا تنضم الى أحد الطرفين .

ـ انا لا انضم الى أحدهما يا بيل . ولكن اذا أراد شخص فى الفوضى أن يعقد الامور فليكن ذلك « چو » . اذهب الى الوطن مع فونج وانس القوة الثالثة .

فقال :

ـ انني بالطبع اقدر نصائحك وسوف اراك عن قريب ».

ـ اعتقد هذا .

ومرت الأسابيع ولم أستطع أن أعثر على سكن جديد . وليس ذلك بسبب انه لم يكن لدى وقت فان الأزمة السنوية للحرب قد مرت . وخيم الجو الرطب الحار على مناطق الشمال وتراجع الفرنسيون عن « هوابنه » وحملة الأرز انتهت لا تونكين . وكان باستطاعة دومنجيز أن يرقب كل ما يجرى فى الجنوب . واخيرا تمكنت من حمل نفسى على رؤية مسكن جديد فى بناء حديث فى الناحية الأخرى من شارع كاتينات ويجاور الكونتننتال . وهو بناء أقيم زمن معرض باريس الدولى فى سنة ٩٣٤ وكان قد بناه احد زراعى المطاط كمقر له فى سايجون وكان يريد بيعه بكل ما يحويه من اثاث ومعدات . وكان بالمسكن لوحات محفورة من معروضات صالون باريس بين سنة ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ ، وكانت أحسن اللوحات فى المجموعة لوحة تمثل امراة ذات صدر مثالى « وتسريحة » غريبة للشعر ، ورداء صغير حول نصفها الأسفل يكشف عن الجزء

الاكبر من بطنها . وفى غرفة الحمام كان المالك الأصلى للمنزل اكثر جراة بمجموعته من الأرواب . وقلت له :

ـ هل تحب الفن .

وتراجع الرجل كانه زميل مشترك فى مؤامرة . وكان بدينا ذا شارب أسود وشعره خفيف . ثم قال :

ـ ان احسن صورى فى باريس .

ورأيت « طفاية » للسجائر بالغة الطول فى حجرة الجلوس وهى تمثل امراة عارية « والطفاية » محفورة فى شعرها . كما شاهدت تحفا صينية تمثل فتيات عاريات يحتضن نمورا . وفتاة نصفها الأعلى من جسدها عار وهى تركب دراجة . وفى غرفة النوم وفى مواجهة سريره الضخم علقت لوحة زيتية تمثل فتاتين عاريتين تنامان معا . وسألته عن ثمن المسكن بدون التحف ولكنه لم يرض الا ببيع الاثنين معا . وسألنى :

ـ انت من هواة جمع التحف ؟ .

فقلت :

ـ لا ..

فقال :

ـ ان لدى مجموعة من الكتب استطيع ان اتركها برغم انى سوف آخذ بعضها الى فرنسا .

وفتح مكتبة لها «واجهة» زجاجية واخرج منها مجموعة فاخرة من المجلات مثل « افروديت » و « نانا » ومجموعة اخرى من الكتب .

وقال :

ـ لو انك عشت فى الأقاليم الحارة بمفردك لعرفت ان مثل هذه المجموعات تعد صحبة يقطع الانسان بها الوقت .

وفكرت فى فونج بسبب بعدها عنى . وقلت للرجل :

ـ لا اعتقد ان الجريدة التى اعمل فيها تسمح لى بشراء مجموعة فنية .

فقال :

ـ ان المجموعة لن تذكر فى الايصال .

وكنت مسرورا لان بيل لم ير هذا الرجل ، ولم يكن بيل فى حاجة الى مقت اشد للاستعماريين القدامى حتى يراه .

وعندما خرجت من المنزل كانت الساعة حوالى الحادية عشرة والنصف وتوجهت الى احد المقاهى لتناول قدح من البيرة . وكان المحل الذى قصدته مجمعا للنساء الاوربيات والامريكيات فى المدينة وكنت متأكدا من انني لن ارى فونج هناك ، بل كنت اعرف بالتأكيد اين تكون فونج فى مثل هذا الوقت من النهار ولم تكن هى بالفتاة التى تغير من « عاداتها » ولذلك فانى عبرت الطريق لاتجنب محل بيع اللبن حيث تشرب مشروبها المفضل من الشكولاته المثلجة فى هذا الوقت من النهار وجلست على المنضدة المجاورة فتاتان امريكيتان وهما فى غاية الأناقة والنظافة برغم الحر اللافح ويتناولان الايس كريم ، وكانت كل منهما تحمل حقيبة على كتفها الايسر وعلى كل حقيبة صورة نسر من النحاس ـ اما سيقانهما فكانت طويلة ورشيقة واخذتا تتناولان الايس كريم وقد ركزتا اهتمامهما فيه كأنهما تجريان تجربة فى احد معامل الكليات . وساءلت نفسى : هل هما من زميلات بيل . فلقد كانتا رائعتين ووددت لو تمكنت من ترحيلهما الى الوطن .. وانتهتا من تناول الايس كريم ونظرت احداهما الى ساعتها وقالت :

ـ يحسن بنا ان نذهب لكى نكون فى الجانب الآمن .

وتعجبت اى ميعاد هما مرتبطتان به . وقالت احداهما :

ـ ان واون قال : انه يجب الا نتأخر عن الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة .

فردت الاخرى

ـ لقد فات الوقت .

ـ ان في البقاء لمتعة . وانا لا اعرف عن حقيقة الأمر شيئا .. هل تعرفين انت ؟ .

ـ ليس بالضبط .. ولكن وارن قال يحسن بنا الا نفعل .

ـ هل تعتقدين انها مظاهرة ؟ .

وقالت الاخرى بالم ظاهر كسائحة رات الكثير من الكنائس :

ـ لقد رأيت مظاهرات كثيرة .

ووقفت هذه ووضعت على المائدة ثمن ما شربتا . وقبل أن تغادر المقهى نظرت حولها وعكست المرايا صورتها من كل اتجاه . ولم يكن في المقهى سواى وفرنسية متوسطة العمر منهمكة في اصلاح زينتها بعناية وبدون فائدة . اما هاتان الأمريكيتان فلم تكونا تحتاجان الى زينة من نوع ما . بل كل ما كان تحتاجان اليه هو امرار قلم الروج بسرعة على الشفتين وامرار المشط خلال الشعر . ولمدة لحظة استقر نظر تلك الواقفة على . ولم تكن نظرتها نظرة امرأة بل نظرة رجل . صريحة مستقيمة تنتظر نوعا من العمل . ثم استدارت بسرعة الى زميلتها وقالت :

ـ يحسن بنا أن نذهب .

وراقبتهما بكسل وهما تخرجان جنبا الى جنب الى الشارع المشمس .

وفجاة انهار هذا العالم حولى . فقد تناثرت المرايا من حولي وطارت شظاياها الى حيث جلست وسقطت الفرنسية على الأرض بين حطام المقاعد والمناضد وكانت حقيبتها ما زالت مفتوحة في حجرى . اما انا فقد ظللت جالسا حيث كنت برغم أن المنضدة التى كنت اجلس عليها قد انضمت الى الحطام حول الفرنسية . وملأ جو المقصف صوت غريب . صوت نافورة يتدفق منها الماء بانتظام ورتيب ونظرت ناحية البار ورأيت صفوفا من الزجاجات المحطمة اخذ ينساب منها هذا الخرير والصفرة غير الصافية للباستيس تنساب

كلها على الأرض وجلست الفرنسية ونظرت بهدوء حولها الى حقيبة يدها وفمت وناولتها اياها وشكرتنى وهى جالسة على الأرض وربما لم أسمعها جيدا . وكان الانفجار قريبا جدا لدرجة أن طبلتى أذنى لم تعودا الى حالتهما من وقع الضغط الا بعد مدة . وساءلت نفسى : أمهزلة اخرى من مهازل البلاستيك ؟ وماذا ينتظر مستر هونج منى ان أكتب الآن . وعندما وصلت الى الميدان دل الدخان الكثيف على أن المسألة لم تعد هزلا . وكان الدخان يتصاعد من السيارة الواقفة فى الموقف المعد لها أمام المسرح القومى . وكانت أجزاء السيارات المحطمة متناثرة على أرض الميدان وهناك رجل قد طارت ساقاه مازال يتلوى على الأرض بجوار حدائق الزينة . وكان الاهالى يتجمعون من شارع كاتيتات ومن شارع بونارد ودوى صوت صفارات سيارات البوليس وأجراس عربات الاسعاف والحريق التى جاءت من كل ناحية ولفترة وجيزة نسيت ان فونج تكون « عاده » فى محل اللبن من الناحية الاخرى من الميدان وكان الدخان يحجب الجانب الآخر من الميدان ولا أستطيع ان أراه .

وخطوت ناحية الميدان واوقفنى أحد رجال البوليس الذين ضربوا نطاقا حول حافة الميدان لمنع الأهالى من التجمهر واخذ حملة النقالات لحمل الجرحى يصلون . وقلت لرجل البوليس امامى :

ــ ان لى صديقا فى الجانب الآخر فدعنى اعبر اليه .

فقال :

ــ ان كل فرد هنا لديه اصدقاء .

وتنحى جانبا ليدع أحد القسس يمر وحاولت أن اتبع القسيس غير أنه جذبنى فقلت له :

ــ اننى ممثل الصحافة .

وبحثت عيناى فى محفظتى عن بطاقة تحقيق الشخصية غير أنى لم اعثر عليها وساءلت نفسى : هل خرجت من المنزل اليوم بدونها ؟ .

وقلت له :



ـ على الاقل قل لى ما الذى حدث لمحل اللبن .

وانقشع الدخان بعض الشىء وحاولت ان ارى غير أن الجماهير حالت بينى وبين الرؤية . وقال رجل البوليس شيئاً لم اسمعه .

وقلت له :

ـ ما الذى قلته ؟ .

فقال :

ـ لا اعرف .. تراجع الى الخلف . انك تحول بين حملة النقالات وتأدية عملهم .

وساءلت نفسى مرة اخرى .. هل سقطت بطاقتى فى المقهى ؟ واستدرت لكى اعود لابحث عنها ورأيت بيل وصاح :

ـ توماس .

وقلت :

ـ بيل .. بحق الله أين جواز مرورك . يجب ان نعبر الميدان ان فونج فى محل اللبن .

فقال :

ـ لا .. لا ..

فقلت له :

ـ بيل .. انها تذهب هناك فى الحادية عشرة والنصف دائماً يجب ان نبحث عنها .

ـ انها ليست هنا يا توماس .

ـ كيف عرفت ؟ اين جواز مرورك ؟ .

ـ لقد حذرتها عدم الذهاب .

واستدرت ناحية رجل البوليس وانا أنوى أن ادفعه جانباً واجرى الى الجانب الآخر للميدان وقد يطلق على الرصاص غير أنى لم ابال . ثم وصلت الى عقلى الباطن كلمة بيل « حذرتها » فساءلت نفسى : ماذا يعنى بكلمة حذرت .

ـ لقد قلت لها لابد ان تبتعد عن المحلّ هذا الصباح .

وتكاملت الصورة فى ذهنى وقلت :

ـ وكذلك « وارن » من هو « وارن » . لقد حذر هؤلاء البنات كذلك .

فقال :

ـ لست افهم ما تقول . يجب الا يكون هناك ضحايا امريكان اليس كذلك ؟ .

وشقت عربة اسعاف طريقها خلال شارع كاتينات الى الميدان وتحرك رجل البوليس الذى منعنى لكى يدعها تمر . وكان رجل البوليس المجاور له مشتبكا فى حوار . فدفعت بيل امامى فى الميدان . قبل ان يستطيعوا منعنا . وسرعان ما وجدنا انفسنا ضمن مجموعة من المصابين وكان فى استطاعة البوليس منع اناس جدد من دخول الميدان بسد الطرق المؤدية اليه . ولكن لم يكن فى استطاعته اخلاء الميدان كلية من شاغليه . وكان الاطباء مشغولين عن الموتى بمعالجة الجرحى . وترك الموتى لمن يتصرف عليهم .. وجلست امرأة على الأرض مع ماتبقى معها من طفلها وبنوع من التواضع غطت المرأة باقى اشلاء الطفل بالقبعة العريضة التى تلبسها وكانت جالسة فى صمت وسكون ، والذى اثر فى السكون المخيم على الميدان . وكان الجو يشبه جو كنيسة زرتها مرة فى اثناء القداس وكانت الأصوات تصدر « فقط » من الذين يقومون بنجدة المصابين عدا افراد متفرقين من الاوربيين الذين كانوا يبكون ثم يعاودون الصمت كما لو خجلوا لتواضع وصبر الشرق وتمالكه لزمام نفسه . ورأيت الجذع الفاقد الساقين بجوار الحديقة مازال يتلوى كفرخ مذبوح فقد رأسه . ومن قميصه عرفت انه سائق عربة . وقال بيل :

ـ انه لفظيع .

ثم نظر الى حذائه المبلول وقال بصوت متحشرج :

ـ ما هذا ؟ .

فقلت له :

ـ انه دم . الم تره قبل الآن ؟ .

فقال :

ـ يجب على أن انظف الحذاء قبل أن أقابل الوزير .

ولا اعتقد انه كان يفهم ما يقوله . فلقد كان يرى الحرب الحقيقية لأول مرة . فلقد شاهد طرفا منها فى « فات ديم » وعلى كل فان الجنود فى نظره لا أهمية لهم .

وقلت له :

ـ ماذا يمكن ان يفعل برميل من ديولكتون ؟ .

فأرغمته بوضع يدى على كتفه على أن ينظر حوله وقلت له :

ـ وفى الساعة التى يكون فيها الميدان مملوءا بالاطفال والنساء لأنها الساعة التى يتسوقون فيها حاجاتهم . لماذا أخترعت هذه الساعة ؟ .

فقال :

ـ لقد كان مفروضا ان يكون هنا استعراض عسكرى .

ـ وانت امات قتل بضعة ضباط . ولكن الاستعراض الغى بالامس يا بيل .

فقال :

ـ لم اكن اعرف .

فدفعته الى بقعة مملوءة بالدم حيث كانت نقالة موضوعة وقلت له :

ـ كان يجب عليك أن تكون معلوماتك أصح .

فقال وهو ينظر الى قدميه :

ـ لقد كنت خارج المدينة . وكان يجب عليهم أن يمتنعوا عن وضع القنابل .

فقلت :

ـ وبذلك تفوتهم فرصة مشاهدة هـذا المنظر .. هل كنت تتوقع ان الجنرال ثى تفوته مثل هذه الفرصة ؟ .

ـ ان ما حدث كان احسن بالنسبة له من قتل الجنود فى الاستعراض . فالأطفال والنساء جدد فى الحرب ولكن الجنود قدامى فى الحرقة وان هذا القتل الجماعى سوف يثير صحافة العالم وهذا ما يرمى اليه الجنرال ثى . وانت بذلك قد ساعدته على اظهار نفسه على «الخريطة» يابيل ـ لقد وجدت القوة الثالثة التى تبحث عنها . اذهب الى المنزل وقل لفونج عن بطولتك الفذة فلقد نقص من بنى وطنها بضع عشرات .

ومر بنا قسيس بدين وهو يحمل شيئا فوق طبق مغطى «بفوطة» وصمت بيل مدة طويلة وبدا عليه ان لونه شاحب وقد أوشك على الاغماء وقلت لنفسى :

« وما الفائدة ؟ سيظل دائما ساذجا وانت لا تستطيع أن تلوم السذج فهم دائما أبرياء وكل ما تستطيع أن تفعله هو ان تسيطر عليهم او تمحوهم والسذاجة نوع من الجنون .»

ثم قال بيل :

ـ ما كان يجب ان يفعلوا ذلك ، وخاصة ثى . لابد ان الشيوعيين خدعوه .

وكان يبدو بكلامه هذا أنه محصن بنواياه الطيبة وبجهله وتركته واقفا فى الميدان وسرت فى شارع كاتينات حيث تسد الكاتدرائية الحمراء الطريق . وكان الناس يتدفقون عليها .. وكان عزاء لهم ان يصلوا من اجل الموتى وكان لدى ما أكون شاكرا عليه . ألم تكن فونج حية ؟ ألم تحذر الذى حدث ؟ ولكن لم يبرح مخيلتى صورة الجذع الملتوى بجوار الحديقة وبقايا الطفل فى حجر امه . وغير ذلك ممن لم يكونوا مهمين ولم يحذرهم احد

ولو سار العرض العسكرى كما كان متوقعا ألم يكونوا هم موجودين كذلك لمجرد التطلع وحب المشاهدة للجنود وسماع الخطب ورمى الزهور . وماذا يمكن أن تفعله قنبلة زمنية زنة مئتى رطل ؟ وكم أكولونيل يموتون لكى يبرر بموتهم بعشرة أشلاء طفل فى حجر أمه أو قطع ساقى سائق عربة يكسب رزقه من ساقيه وجره لعربته .. ان كل هذا لا يهم فى نظر البعض » وأوقفت عربة بموتور وطلبت من سائقها أن يصحبنى الى رصيف ٢ ميناء بالميناء .»

الفصـــل الســادس

لقد اعطيت فونج نقودا لتصحب اختهـــا الى السينما حتى تكون بعيدة عما يحدث وفى ســـــلام وخرجت لتناول العشاء مع «دومنجيز» وكنت فى غرفتى ثانية عند العاشرة تماما عندما حضر «فيجو» واعتذر لعدم قبوله كاسا وقال :

ـ انه تعب للغاية .

وتناول كاس قد يجلب النعاس الى عينيه ولقــد كان اليوم حافلا بالأحداث وطويلا بالنسبة له وسألته :

ـ حوادث قتل وموت فجائى ؟

ـ لا . سرقات صغيرة ، وبعض حالات الانتحار ، فهؤلاءالناس من أهل البلاد يحبون المقامرة وعندما يفقدون كل شىء فانهم يقتلون انفسهم وربما لم أكن جعلت من نفسى رجل بوليس ، لو عــرفت الوقت الطويل الذى على ان أقضيه فى «المشرحة» بحكم وظيفتى فانا لا أحب رائحة الامونيـــا .. وربما ارغب الآن فى قـــدح من البيرة .

ـ ليس لدى ثلاجة ، ولذا فليس لدى بيرة .

ـ على كل .. فان كأسا من الويسكى تكفى .

وتذكرت الليلة التى توجهت فيها معه الى«المشرحة» واخرجوا فيها جثة بيل كأنه صينية من مكعبات الثلج وسألنى «فيجو» :

ـ وعلى ذلك فانت لن ترحل الى الوطن ؟

ـ انك تسأل عنى ؟

ـ نعـــم .

ومددت يدى بكأس الويسكى اليه حتى يرى مدى ثبات اعصابى وقلت له :

ـ فيجو . انى أود أن تقول لى : لماذا تعتقد أن لى صلة بمقتل بيل ؟ . وهل ذلك له دافع وهو انى أريد أن أسترد فونج ؟ وهل تتخيل أن قتله كان انتقاما لفقدى اياها ؟

فقال :

ـ لا . فأنا لست غبيا . فالانسان لا يأخذ كتاب عدوه كشىء للذكرى وهاهوذا كتابه على رف كتبك « مسئولية الغرب » من هو يورك هاردنج ؟

فقلت له :

ـ انه الرجل الذى تبحث عنه يا فيجو ـ انه هو الذى قتل بيل من مسافة بعيدة .

ـ انى لا افهم ما تقول .

ـ انه صحفى من نوع راق وهم يطلقون عليه اسم مراسل دبلوماسى فهو تسيطر عليه فكرة ما . ثم يحاول أن يغير من كل موقف لكى يجعله يتمشى مع فكرته . وقد جاء بيل هنا ورأسه مملوء بأفكار يورك هاردنج ـ وقد مر هاردنج بسايجون مدة أسبوع فى طريقه من بانجكوك الى طوكيو وقد أخطأ بيل بمحاولة تطبيق نظرية هاردنج ـ فلقد كتب هاردنج عن قوة ثالثة تحمل معنى التوازن بين الشيوعيين وبين الاستعماريين القدامى وقام بيل بتكوين قوة ثالثة من رئيس عصابات صغير معه ألفان من الرجال وزوج من النمور المستأنسة . وكانت النتيجة أنه اختلط عليه الأمر .

فقال « فيجو » :

ـ أما انت فلا يختلط عليك الأمر أبدا .

ـ لقد حاولت الا ازج بنفسى فى مشاكل .

فقال :

ـ ولكنك لم تنجح يا فولر .

ولسبب ما فكرت فى الكابتن « توين » والليلة التى قضيناها معا والتى بدت كأنما مرت عليها سنوات . ترى ما الذى يرمى اليه فيجو .. هل يقصد أننا سوف نجد أنفسنا مشتركين فى الصراع ان عاجلا أو آجلا تحت دافع شعور ما ؟ وقلت :

ـ انك تصلح لان تكون قسيسا صالحا يا فيجو. فأنت تستطيع أن تجعل المرء يعترف لك بكل شيء لو كان لديه ما يعترف به .

ـ انى لم أطلب يوما ما أى اعتراف .

ـ ولكنك تتلقى هذه الاعترافات .

ـ من وقت لآخر .

ـ هل لأن وظيفتك كالقسيس تجعلك لاتندهش من أى اعتراف بل تكون عطوفا عندما يقول لك المجرم : يا سيدى . يجب أن أقول لك بالضبط لماذا حطمت راس السيدة العجوز فتقول له نعم يا جوستاف على مهلك وقل لى لماذا فعلت ذلك .

فقال فيجو :

ـ ان لك خيالا خصبا . الم تكن تسكر الآن يافولر ؟.

ـ من المؤكد أن السكر غير حكيم بالنسبة للمتهم وخاصة اذا سكر مع ضابط البوليس .

ـ أنا لم أذكر قط أنك مجرم .

ـ ولكن افترض أن السكر قد جعلنى أرغب فى الاعتراف فان فى مهنتك بعكس مهنة القسيس ليس هناك أسرار للاعتراف .

فقال :

ـ ان السرية نادرا ما تكون مهمة بالنسبة لرجل يعترف حتى لو كان الذى يعترف له قسيسا . فان له دوافعه الاخرى .

فقلت :

ـ اجل . من اجل اراحة ضميره .

قال :

ـ ليس دائما . فاحيانا يريد المذنب أن يرى نفسه فى وضوح كما هو عليه . وانت لست مجرما يافولر ولكن احب ان اعرف لماذا كذبت على . فلقد رايت بيل فى ليلة موته .

قلت :

ـ ما الذى يجعلك تظن ذلك ؟

ـ انا لا يخطر على ذهنى انك قتلته . فانت لا تستطيع أن تستخدم فى قتله سونكى . هذه هى المعلومات التى وصلت الينا ، ولقد قلت لك ذلك برغم أن هذا لم يكن سبب موته فلقد مات غرقا .

ورفع فيجو كاسه لاصب له كاسا أخرى وقال :

ـ دعنى استعد ما حدث . لقد تناولت كاسا فى الكونتننتال فى الساعة السادسة وعشر دقائق أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ فتابع كلامه : وفى السادسة وخمس وأربعين دقيقة كنت تتكلم مع صحفى آخر على باب فندق الماجستك .

ـ نعم . مع ويلكنز . لقد قلت لك ذلك يا فيجو قبـــل هذه الليلة .

ـ نعم . فلقد تحريت عن صحة اقوالك ـ وانه لأمر عجيب أن تحمل هذه التفصيلات الدقيقة فى راسك .

فقلت له :

ـ انثى مراقب صحفى يافيجو .

ـ ربما كان التوقيت فى حركاتك ليس مضبوطا . ولكن ما من احد يلومك لو قضيت ربع ساعة هنا وعشر دقائق هناك ، فأنت ليس لديك سبب لكى تعتقد ان الوقت اهمية برغم ان الأمر يشك فيه جدا او ان توقيتك لحركاتك كان مضبوطا جدا .

فقلت له :

ـ ألم يكن توقيتي مضبوطا جدا ؟

ـ ليس مضبوطا تماما . فلقد كانت الساعة السابعة وخمس دقائق عندما كنت تتكلم مع ويلكنز .

فقلت :

ـ فرق عشر دقائق أخرى ؟

فقال :

ـ بالطبع وكما قلت فان الساعة كانت تمام السادسة عندما وصلت الى الكونتننتال .

فقلت :

ـ ان ساعتي سريعة بعض الشيء . كم الساعة لديك الآن ؟

فنظر في ساعته وقال :

ـ العاشرة وثماني دقائق .

فقلت له :

ـ ولكن ساعتي تشير الى العاشرة وثماني عشرة دقيقة . الا ترى ؟

ولم يهتم فيجو بالنظر الى ساعتي وقال :

ـ اذن فالوقت الذي كنت تتكلم فيه مع ويلكنز كان في الساعة السادسة وخمس وعشرين دقيقة على حسب ساعتك . ان هذه تعتبر غلطة كبيرة أليس كذلك ؟

فقلت :

ـ ربما ضبطت الوقت في عقلي . وربما ضبط ساعتي في هذا اليوم . فأنا احيانا افعل ذلك .

فقال فيجو :

ـ ان ما يهمني . هل لي في قليل من الصودا ؟ فلقد أعطيتني الويسكي قويا هذه المرة وهل معنى ذلك انك غاضب مني ؟ . فان الاستجواب ليس شيئا محببا كما استجوبك الآن .

فقلت له :

ـ انى أجد الأمر مسليا كما لو كان قصة بوليسية . وعلى كل فانت تعرف انى لم أقتل بيل . وانت قلت ذلك.

فقال فيجو :

ـ أنا لم أعلم انك لم تكن حاضرا مقتله .

فقلت :

ـ أنا لا اعرف ما الذى تريد أن تثبته بأن تظهـــر أننى كنت متأخرا أو متقدما عشر دقائق هنا أو خمس دقائق هنـــاك .

فقال :

ـ ان ذلك يمنح الانسان وقتا أطول . فهى ثغرة فى التوقيت.

ـ وقتا لعمل أى شىء ؟

ـ لأن يحضر بيل ويراك .

ـ لماذا ترغب كثيرا فى اثبات ذلك ؟.

ـ بسبب الكلب .

ـ وبسبب الطين الذى وجد بين مخالبه .

ـ انه لم يكن طينا ذلك الذى وجدناه بين مخالبـــه . بل كان اسمنتا . هل فهمت ؟ ففى مكان ما فى تلك الليلة عندما كان الكلب يتبع بيل فان الكلب مر على اسمنت مبتل. وتذكرت أنه فى «الطابق» الأرضى الذى تسكنه كان هناك بعض البنائين يعملون . وقد رأيتهم الليلة كذلك فى أثناء حضورى اليك فهم يعملون ساعات طويلة فى هذه البلاد .

فقلت :

ـ انى لأعجب كم بيتا فى سايجون الآن فيه بنـــاءون وحوله اسمنت مبلول . هل ذكر أحدهم رؤية الكلب هنا ؟.

فقال فيجو :

ـ بالطبع لقد سألتهم عن ذلك . ولكنهم لو رأوا الكلب هنـــا ما قال لى أحد منهم ذلك . فأنا رجل بوليس .

وتوقف عن الكلام واضطجع في مقعده وحدق بالنظر الى الكأس التى فى يده واحسست بأن تفكيره قد انصرف الى شيء بعيد وزحفت ذبابة على ظاهر يده ولم يحاول أن يبعدها . وشعرت بقوة غير دافعة وغير مرئية . وربما كان يدعو الله فى سره .

ووقفت وتوجهت ناحية غرفة النوم .. لم يكن فى الغرفة شيء أريده عدا البعد مدة عن هذا الصمت الجاثم على الكرسى .. وكانت البومات الصور الخاصة بفونج قد عادت ثانية الى مكانها على الرف . وقد تركت لى تلغرافا بين أوانى المستحضرات التجميلية التى تستخدمها وربما كانت مرسلة من ادارة الجريدة فى لندن . ولم تكن لدى رغبة فى الاطلاع عليها وكان كل شيء يبدو كما كان عليه قبل ان يظهر بيل فى افق حياتها . فالغرف لا تتغير وظل ما تزين به الغرفة فى مكانه فلا تغيير عدا ان القلب يذوى .

وعدت الى غرفة الصالون ورفع فيجو الكأس الى شفتيه وقلت له :

ـ ليس لدى ما اقوله لك . ليس لدى شيء على الاطلاق .

فقال :

ـ اذن سوف ارحل . ولا أعتقد أننى سأضايقك مرة اخرى .

وعند الباب استدار ثانية كما لو كان لا يريد أن يقطع الأمل فى الوصول الى شيء وقال :

ـ لقد كان غريبا منك ان تذهب لترى الرواية التمثيلية فأنا لا اعتقد انك تهتم بروايات الدراما . ماذا كانت الرواية ؟ هل كانت « روبن هود » ؟

فقلت :

ـ اعتقد أنها رواية « سكاراموش » وكنت أشعر باني فى حاجة الى ما يشغل ذهنى .

فقال :

ـ الى ما يشغل ذهنك ؟.

فقلت ، اشرح له ما أقصده بحذر :

ـ نعم ، فنحن جميعا لدينا مايشغلنا بالفيجو .

وعندما رحل فيجو كانت هناك ساعة مازالت باقية على مجيء فونج والشعور بالحياة . وكان غريبا ان اقلقتنى زيارة فيجو . فلقد بدا لى كأنه شاعر قد أحضر لى ما نظمه لكى افقده وبسبب اهمال منى قد حطمت ما نظمه . فلقد كنت رجلا بلا عمل . والمرء لا يستطيع ان « يعتبر » الصحافة عملا جديا ولكنى أستطيع ان أرى معنى العمل الجدى لدى رجل آخر والآن وقد رحل فيجو ، لكى يحفظ ملفه الذى لم يستكمل وددت لو أنه كان لدى الشجاعة لكى أناديه واقول :

ـ انك على حق ـ فلقد رأيت بيل فى ليلة مقتله .

الفصل السابع

فى طريقى الى « رصيف » الميناء مررت بعدة عربات للاسماك آتية من ناحية الحى الصينى قاصدة الميدان . والانسان يستطيع أن يقيس مدى الاشاعات بالمشاعر التى تظهر على وجوه الناس فى الشوارع . وعندما وصلت الى الحى الصينى كان فى امكانى معرفة الأخبار . فالحياة متدفقة وطبيعية وغير معوقة . فما من أحد كان يدرى شيئا . ووجدت سكن المستر شو وصعدت الى منزله ولم يتغير شىء منذ زيارتى الأخيرة . فالكلب والقطة يتحركان من الأرض الى الصناديق ثم الى الحقائب . كما لو كانا زوجا من الفرسان فى لعبة شطرنج . وكان الطفل يزحف على الأرض والرجلان العجوزان مازالا يلعبان لعبتهما . ولم يكن غائبا سوى الشباب من اهل البيت وماكدت اظهر فى مدخل الباب حتى اخذت امراة تصب الشاى فى القدح وجلست السيدة العجوز على السرير ونظرت الى قدميهما وسالت :

— هل المستر هنج موجود ؟

وهززت راسى ممتنعا ان آتناول الشاى فلم اكن فى حالة تسمح لى بان ابدا فى سلسلة من شرب اقداح الشاى المر . وقلت بالفرنسية :

— انى ارغب فى مقابلة المستر هنج .

وكان يبدو مستحيلا ان افهمهم ضرورة رؤيتى له ، غير ان رفضى لتناول الشاى قد سبب بعض الانزعاج ، او ربما كنت مثل ﭙيل يوجد دم على حذائى وعلى كل فانه بعد تاخير قليل قادتنى احدى النسوة الى الخارج وهبطنا السلم وقادتنى خلال شارعين

مزدحمين بالاعلام المرفوعة والحركة وتركتنى امام مايطلق عليه فى وطن بيل على ما اعتقد « صالون جنازات » وهو محل مملوء بالجرار الفخارية الضخمة حيث توضع عظام الموتى من الصينيين وقلت لأحد الصينيين الواقفين بالباب :

ـ أين مستر هنج ».

وخيل الى ان التوقف فى هذا المكان توقف مناسب فى يوم بدا بمشاهدة مجموعة زارعات المطاط من النساء ثم برؤيةالأجساد المتناثرة فى الميدان واخيرا برؤية جرار دفن الموتى لدى التاجر الصينى . ونادى شخص ما من الداخل وتنحى الصينى جانبا وقال «ادخل» ورأيت هنج قادما نحوى بأديه المعتاد ثم قادنى الى حجرة صغيرة مصفوف فيها كراسى محفورة غير مريحة من الكراسى الصينية التى تجدها فى كل بيت صينى بدون استعمال . ولكنى رأيت ان هذه الكراسى كانت مشغولة فقد رأيت خمسة اقداح صغيرة على المنضدة ومنها اثنان لم يتم شرب الشاى المصبوب فيهما وقلت :

ـ لقد قطعت عليكم اجتماعكم ».

فقال المستر هنج :

ـ انها مسائل تجارية غير ذات اهمية . وانا اكون مسرورا دائما بمقابلتك يا مستر فولر .

فقلت :

ـ لقد جئت من ميدان جارنيير ».

فقال :

ـ هكذا ظننت .

ـ لقد سمعت ما حدث .

ـ لقد أخبرنى أحدهم تليفونيا .. ورأيت من الأفضل البعد عن منزل المستر شو لفترة ما وسوف يكون البوليس مشغولا بالقبض على كثيرين اليوم ».

فقلت له :

ـ ولكنك لا دخل لك فيما حدث من القاء القنبلة ».

فقال :

ـ ان من وظيفة البوليس أن يجد من يلقى اللوم عليه ».

ـ لقد كان بيل هو الفاعل مرة أخرى .

ـ نعم انه بيل .

فقلت :

ـ لقد كان شيئا فظيعا ذلك الذى حدث ».

فقال :

ـ ان الجنرال تى ليس بالشخصية التى يمكن التحكم فيها ».

فقلت :

ـ ولكن اللعب بقنابل البلاستيك ليس للأطفال القادمين من « بوستس » . من هو رئيس بيل يا هنج ؟

ـ ان لدى الثقة بأن مستر بيل هو سيد نفسه والمسئول عن أفعاله .

ـ ما هى وظيفته ؟ وهل هو فى قسم مكافحة الجاسوسية ؟

ـ ان وظيفته والقسم الذى يتبعه ليسا مهمين .

ـ ما الذى يمكن ان افعله يا هنج ؟ فانه يجب ابقافه من هذه الاعمال .

ـ تستطيع ان تنشر الحقيقة فى الجريدة التى تمثلها ـ أو انك لا تستطيع ؟

فقلت :

ـ ان جريدتى ليست مهتمه باخبار الجنرال تى . انها مهتمة بأخبار بنى وطنك ياهنج .

فقال :

ـ هل تريد حقيقة ان يوقف المستر بيل عن الأفعال التى يقوم بها يا مستر فولر ؟

فقلت :

ـ لقد رأيته يا هنج وهو واقف يقول : ان ما حدث كان غلطة محزنة فانه كان من المفروض ان يكون هناك استعراض فى هذه الساعة . كماقال انهيجب عليه ان ينظفحذائهقبل ان يقابل الوزير المفوض .

فقال :

ـ اذن انت بالطبع تستطيع أن تذكر للبوليس ما تعـرفه عن نشاطه .

فقلت :

ـ ان البوليس غير مهتم بالجنرال ثى كذلك . وهل تعتقـد أن البوليس يجرؤ على مس امريكى . فان له حصانة دبلوماسية . وهو خريج جامعة هارفارد والوزير المفوض يحب بيل جدا.هنج. لقد رايت امراة فى الميدان قتل طفلها فقامت بتغطية مابقى منجثته فىحجرها بقبعتها المصنوعة من القش وانا لا استطيع ان انسى هذه الصورة كما رأيت مثل هذه المناظر البشعة والترع مملوءة بالجثث فى « فات ديم » .

فقال :

حاول ان تكون هادئا يامستر فولر .

ـ ما الذى سوف يفعله فى المده القادمة يا هنـــج ؟ كم من القنابل والقتلى من الاطفال يستطيع ان يتسبب فيهم بوسيـلة من « الديولكتون ؟ »

فقال :

ـ هل انت على استعداد لمعاونتنا يا مستر فولر ؟

فتابعت كلامى قائلا :

ـ لقد جاء مقتحما البلاد وكان الناس يموتون نتيجة لاخطائه. واتمنى لو ان بنى وطنك يتمكنوا من قتله فى اثناء رحلته عبـر النهر الى « نام دينه » فان ذلك كان قد غير كثيرا من مصير حيـاة الكثيرين .

ــ انى متفق معك يامستر فولر ، ويجب أن نمسك بزمامة ولدى افتراح اقدمه .

وسجل رجل خارج الغرفة سعلة خفيفة ثم بصق بصوت مرتفع ، وتابع هنج كلامه قائلا :

ــ لو دعوته الى العشاء هذه الليلة فى مطعم الطاحونة بين الثامنة والنصف والتاسعة والنصف .

ــ وما الفائدة ؟

فقال هنج :

ــ سوف نتكلم معه وهو فى طريقه اليك .

ــ قد يكون ليس بمفرده .

ــ ربما يكون أحسن او دعوته الى زيارتك فى المنزل فى السادسة والنصف وسوف يكون بمفرده فى مثل هذه الساعة ومن المؤكد أنه سيحضر واذا امكن ابقاؤه لتناول العشاء فانظر من نافذة مسكنك كما لو كنت تريد أن تشاهد منظر الغروب .

فقلت له :

ــ لماذا أدعوه الى مطعم الطاحونة بالذات ؟

ــ لأن المطعم مجاور « للكوبرى » المؤدى الى « ماكو » واعتقد أننا سوف نستطيع ان نجد مكانا نتكلم فيه بدون أن يزعجنا احد .

فقلت له :

ــ وماذا سوف تفعل ؟

ــ أنت لا تريد أن تعرف ذلك يا مستر فولر . غير انى اعدك بأننا سوف نعمل بمنتهى الرفق بقدر مايسمح الموقف .

وسمعت صوت أصدقاء هنج يتحركون فى الخارج كما لو كانوا إفارا خلف الحائط وتابع هنج كلامه :

ــ هل تعمل ذلك من أجلنا يا مستر فولر ؟

فقلت :

ـ انا لا اعرف . انا لا اعرف ».

فقال هنج :

ـ ان عاجلا أو آجلا على المرء أن ينضم الى احد الجانبين ليبقى آدميا ».

وتذكرت كلام الكابتن « ترون ».

وتركت مذكرة فى المفوضية الامريكية أطلب فيها من بيل ان يمر على بالمنزل وسرت فى الشارع قاصـــدا فندق الكونتننتنــــال لاتنــاول كاسا . وكان الحطام المتناثر من فعل القنبلة قـد ازيل وقامت فرقة الحريق بغسل الميدان من الدم . ولم تكن لدى فكرة وقتئذ كيف أن الزمن والمكان سوف يصبحان مهمين . وفكرت فى البقاء جالسا طوال المساء مخلفا ميعادى مع بيل . ثم فكـرت فى اننى ربما انجح فى اخافة بيل وجعله يبتعد عن العمل الذى يقوم به بتحذيره من الخطر الذى يترقبه أيا كان هذا الخطر . ومن ثم انتهيت من شرب قدح البيرة الذى طلبته وذهبت الى المنزل وعندما وصلت الى المنزل اخذت اتمنى الا يحضر بيل . وحاولت القراءة ولكن لم يكن لدى من الكتب ما يمكن ان يصرفنى عن التفكير وربما كان على ان ادخن لاهدىء اعصابى . واخذت انصت رغم ارادتى الى صوت وقع اقدام واخيرا سمعتها . وقرع شخص الباب وفتحت الباب فوجدت « دومنجيز » وقلت له :

ـ ماذا تريد يا دومنجيز ؟

فنظر الى نظرة تدل على الدهشة وقال وهو ينظر فى ساعته :

ـ ماذا تريد ؟ ان هذا هو ميعاد حضورى دائما ـ هل لديك تلغرافات تريد ان ترسلها ؟

فقلت :

ـ انى آسف لقد نسيت . ليس لدى تلغرافات .

فقال :

ـ ولكن الا تريد ان ترسلَ شيئا عن القنبلة ؟ الا تريد ان تكتب خبرا عنها ؟

فقلت :

ـ اكتب شيئا عنها يادومنجيز وارسله ـ فانا لا ادرى ماذا اكتب وخاصة انى قد رأيت أنا نفسى المشهد وربما قد اثر ذلك فى أعصابى . وأنا لا أستطيع التفكير فى كتابة الخبر على هيئة برقية .

وضربت بيدى ناموسة اخذت تطن حول اذنى ورأيت دومنجيز يتراجع من فعلى بالناموسة فقلت له :

ـ لم يحدث شيء يادومنجيز لقد أخطأتها .

فابتسم بمسكنة فهو لا يقر القضاء على حياة مخلوق حى وعلى كل فهو مسيحى . وسألنى دومنجيز :

ـ هل هناك شيء استطيع تأديته لك ؟

وكان دومنجيز لايشرب الخمر ولا يأكل اللحم ولا يقتل احدا وحسدته على رقته فى تفكيره . ثم قلت له :

ـ لا يا دومنجيز اتركنى الليلة .

ورقبته من النافذة وهو يسير فى الشارع ولمحت احد سائقى « الريشو » قد « ركن » عربته تجاه المنزل بجوار « الرصيف » . وحاول دومنجيز ان يستأجره ولكن الرجل هز رأسه بالرفض وربما كان ينتظر « عميلا » داخل احد المحال ، لان المكان الذى وقف فيه لم يكن موقفا للعربات . وعندما نظرت فى ساعتى راعنى انه لم تمر سوى عشر دقائق على انتظارى فى المنزل . وعندما قرع بيل الباب لم اسمع حتى وقع قدميه . وقلت :

ـ ادخل .

ولكن « كالعادة » كان كلبه الذى دخل اولا . وقال بيلَ :

ـ لقد كنت مسرورا عندما تلقيت رسالتك فقد ظننت انك كنت غاضبا جدا منى حتى هذا الصباح .

فقلت له :

ـ ربما كان ذلك صحيحا فان المنظر فى الميدان لم تكن جميلا.
فقال :
ـ لقد أصبحت تعرف الآن الكثير . ولن يؤذى ان اقول لك شيئا آخر . لقد قابلت ثى بعد الظهر .
فقلت :
ـ رأيته ؟ . هل هو فى سايجون ؟. اعتقد انه جاء ليرى نتيجة انفجار قنبلته .
فقال :
ـ لقد عاملته بخشونة ياتوماس وانبته .
وكان بيل يتكلم كأنه رئيس فريق رياضى فى مدرسة وقد أخطأ احد افراده فلم ينفذ التعليمات والتدريبات وعلى كل فقد سألته بنوع من الأمل :
ـ هل أعلنت له مقاطعتك اياه بعدما فعل ؟
فقال :
ـ لقد ذكرت له انه لو قام بأى عمل غير متفق عليه فسوف ننفض ايدينا منه .
فقلت :
ـ ولكن ألم تنفض يديك منه بعد يابيل ؟
ودفعت الكلب بصبر نافد وذلك لاقترابه منى . ثم قال بيل :
ـ لا استطيع . اجلس يا ديوك . لا استطيع مقاطعة الجنرال ثى لأنه الأمل الوحيد لنا فى المدى الطويل ولو تمكن من الوصول الى السلطة بمعاونتنا فاننا نستطيع الاعتماد عليه .
فقلت له :
ـ كم من الناس يجب أن يقتلوا قبل أن تحقق ما تريد ، وتتحقق أن ...
ـ اتحقق اى شىء يا توماس .
فقلت :

ـ تتحقق ان السياسة ليس فيها شيء اسمه الاعتراف بالجميل .

فقال :

ـ على الاقل فهم لن يكرهونا كما نكرهون الفرنسيين .

ـ هل انت متاكد من هذا ـ فاحيانا يكون لدينا نوع من الحب لأعدائنا واحيانا نشعر بالبغض لاصدقائنا .

ـ انت تتكلم كاوربى ياتوماس . فان هؤلاء الناس ليسوا معقدين .

ـ هذا هو ما تعلمته فى اشهر قليلة . وبذلك فسوف تدعوهم بالأطفال فى المرة القادمة ؟

فقال :

ـ حسنا . . . انهم فعلا كذلك بطريقة ما .

فقلت :

ـ اوجد لى طفلا واحدا غير معقد يابيل . عندما نكون اطفالا فاننا نكون غاية متشابكة من التعقيدات . ونحن نصبح اكثر « بساطة » كلما تقدمنا فى السن . ولكن ما الفائدة من الكلام معك فان مناقشاتنا نحن الاثنين كانت تقوم على غير الحقيقة .

وقمت من جلستى واتجهت ناحية رف الكتب فقال بيل :

ـ عم تبحث يا توماس ؟

قلت :

ـ انى ابحث عن عبارة كنت مغرما بترديدها ، هل يمكنك أن تتناول معى العشاء يا بيل ؟

ـ انى كنت احب ذلك يا توماس ، وانا فى غاية السرور لانك لم تعد غاضبا منى وأنا أعلم أنك لا تتفق معى ويمكن ان نختلف فى الراى . اليس كذلك ومع هذا نظل أصدقاء .

فقلت :

ـ انا لا اعرف . انا لا اعتقد هذا .

ـ على كل فان فونج كانت اكثر اهمية من ذلك كله .

ـ هل تعتقد حقيقة ذلك بابيل ؟

ـ ولماذا ؟ انها أهم شيء بالنسبة لى وبالنسبة لك يا توماس .

ـ ليس بالنسبة لى حاليا .

ـ لقد كانت الصدمة عنيفة اليوم يا توماس . ولكن بعد أسبوع سوف ترى فسوف تنساها فنحن قد قمنا بالعنـــــاية باقارب الضحايا .

ـ ماذا تعنى نحن ؟

فقال :

ـ لقد ابرقنا الى واشنطن . وسوف نحصـــــــلُ على اذن باستخدام بعض أموالنا فى معونة الضحايا واقاربهم .

وقاطعته قائلا :

ـ هل تقابلنى عند مطعم الطاحونة فيما بين التاسعة والتاسعة والنصف ؟

ـ اى مكان تحب يا توماس .

وذهبت الى النافذة ورايت الشمس قداختفت خلف السطوح. وكان سائق العربة مازال منتظرا على « الرصيف » . ونظرت اليه ورفع وجهه الى . وقال بيل :

ـ هل تنتظر احدا يا توماس ؟

ـ لا . فانى قد وجدت القطعة التى كنت ابحث عنها .

ولكى اخفى قصدى عنه اخذت أقرأ وانا ارفع الكتاب ناحيـة الضوء الغارب :

« وسرت خلال الطرقات ولم أبال بشيء وحدق النـــاس الى بالنظر وتساءلوا من اكون ؟ ولو كان لدى فرصة لكى أسحق شريرا فانى استطيع تحمـل الأضرار لو كانت كبيرة وانه لأمر يبعث على السرور ان يكون معك نقود . انه لشيء مبهج ان يكون معك نقود. »

وقال بيل بنوع من الاشمئناط :

ـ انها قصيدة مضحكة .

فاجبته :

ـ ان الشاعر كان رجلا ناميا من شعراء القرن التاسع عشرولم يكن هناك كثير على شاكلته .

ونظرت ثانية الى الشارع . فوجدت سائق العربة قد رحل. وقال بيل :

ـ هل فرغ الخمر من عندك ؟

ـ لا ولكننى ظننت انك لا تحب أن تشرب . .

فقال بيل :

ـ ربما اكون قد ابتدات أتحرر وذلك بسبب تأثيرك على، واعتقد انك طيب معى يا توماس .

وأحضرت الزجاجة والكؤوس ـ ونسيت أحد الكؤوس فى المرة الأولى . وكان على أن احضر الماء وكان كل ما افعله فى ذلك المساء يستغرق منى زمنا طويلا . وقال بيل :

ـ انت تعلم ان لى عائلة طيبة ، ولكن ربما كانوا متحفظين بعض الشيء ولدينا منزل من المنازل القديمة فى شارع من شوارع بوسطن الجميلة على اليمين الصاعد الى المرتفع فى المدينة وامى تروى جمع الزجاج . اما أبى فعندما لايكون مشغولا بعمله فانه يهوى جمع أصول كتب دارون والنسخ النادرة من كتبه . وانت ترى انهم يعيشون فى الماضى وربما لهذا السبب كان ليورك هاردنج هذا التاثير على فان كتاباته تفتح الأبواب على الأحداث الجديدة فى العالم اما ابى فهو من المتوحدين الذين يؤثرون الانفراد .

فقلت :

ـ ربما كنت أحب والدك فانا متوحد كذلك .

وبالنسبة لرجل هادىء فان بيل كان مثرثرا فى هذا المساء ، ولم اسمع كل ما قاله لان عقلى كان فى مكان آخر . وحاولت أن

اقنع نفسى ان المستر هنج لديه وسائل لاسكات بيل غير الوسيلة العنيفة ولكن فى حرب مثل هذه كنت اعرف انه ليس هناك وقت للتردد - والانسان يستخدم السلاح الذى بيده - فالفرنسيون يستخدمون قنابل النابالم ومستر هنج يستخدم السكين أو الرصاصة وقلت لنفسى متأخرا بالطبع : اننى لم أخلق لأكون قاضيا ولو تركت بيل يتكلم لمدة ثم حذرته ما ينتظره على يد المستر هنج وأعوانه فانه يستطيع قضاء الليل بمنزلى وهم لن يحاولوا قتله فى منزلى . وسمعته يتكلم عن مربيته وهو يقول :

- لقد كانت بالنسبة لى احسن من أمى - وكانت ماهرة فى صنع فطائر التوت .

وقاطعت بيل وقلت له :

- هل تحمل معك مسدسا الآن - منذ تلك الليلة التى كنا فيها فى البرج ؟

فقال :

- لا . فان لدينا أوامر من المفوضية .

- ولكنك تقوم بأعمال خاصة ذات طابع معين .

- ان حملى للمسدس لن يغير من الواقع - ولو ارادوا قتلى فباستطاعتهم ذلك وفى الكلية كانوا يسموننى الوطواط .. لان فى استطاعتى ان ارى فى الظلام ..

وتوجهت ثانية ناحية النافذة ، وكان هناك سائق عربة منتظرا ولم اكن متأكدا فانهم كلهم يبدون متشابهين لى ولكن اعتقد أنه سائق آخر ، ربما كان ينتظر حقيقة أحد «الزبائن» وخطر لى ان بيل قد يكون أكثر أمنا فى المفوضية ، ولابد انهم قد رسموا خطتهم منذ ان اعطيتهم الاشارة لكى ينفذوها فى المساء عند كوبرى « داكو » . ولم اكن استطيع أن أفهم كيف ولماذا اختاروا المكان ؟ ومن المؤكد ان بيل ليس مغفلا الى درجة الركوب والمرور فى حى «داكو» بعد المساء حيث ان الحراسة لا تكون الا فى ناحية واحدة من «الكوبرى» .

وقال بيل :

ـ انني انكلم وحدى ولا أعرف لماذا ولكن هذا المساء بالذات أشعر بالحاجة الى الكلام .

فقلت له :

ـ تكلم . فأنا في حالة هادئة ، وهذا كلّ ما في الأمر ويحسن بنا أن نلغى هذا الموعد على العشاء .

فقال :

ـ لا . لا تفعل ذلك حيث أني كنت لقد شعرت بأني قد انفصلت عنك منذ .. حسنا ..

فأكملت له :

ـ منذ ان انقذت حياتى .

ولم استطع اخفاء مرارة الجرح الذى سببته لنفسى .

وقال بيل :

ـ لا . انا لا أعنى ذلك . وعلى كل حال لقد تكلمنا معا في تلك الليلة . أليس كذلك ؟ كما لو كانت ستكون الليلة الأخيرة لنا .. ولقد عرفت الكثير عنك يا توماس في تلك الليلة وانا لا أتفق معك عقليا . ولكن بالنسبة لك فان البقاء على الحياد قد يكون صحيحا . وأنت تحافظ على حيادك هذا بكلّ ما تستطيع حتى بعدما أن كسرت ساقك فقد بقيت على الحياد .

فقلت له :

ـ ان هناك دائما نقطة للتحول عن هذا الحياد . وربما دفع الانسان لها لحظة عاطفية .

فقال :

ـ أنت لم تصل الى هذه النقطة بعد . وأشك في أنك سوف تصل اليها وانا كذلك لا اعتقد انى سوف أتغير الا اذا مت .

وقال ذلك بمرح فقلت له :

ـ حتى بعد ما حدث فى هذا الصباح اليس ذلك كافيا لان يتحول الرجل عن آرائه .

فقــال :

ـ ان الذين ماتوا هذا الصباح كانوا من ضحايا الحرب .. وانه لامر يبعث على الشفقة . ولكنك فى الحرب لا تستطيع دائما ان تصيب الهدف المقصود .

فقلت له :

ـ هل كنت تقـول مثل هـذا القول لو ان مربيتك التى تصنع لك فطائر التوت قد ماتت الميتة نفســها .

فتجاهل النقطة وقال :

ـ على كل فانك تستطيع ان تقـول انهم ماتوا فى ســـبيل تحقيق الهدف .

فقلت :

ـ انا لا استطيع أن أعرف كيف يترجم قولك هذا الى اللغــة الفيتنامية .

وفجاة شعرت بالتعب الشديد واردت أن ينصرف بسرعــة ويذهب لــكى يقتلوه .. وبذلك أستطيع أن ابدأ الحياة من جديد من النقطة التى قطعها عند ظهوره فى مسرح حياتى . وقال لى :

ـ انت لن تأخذنى مأخذ الجد يا توماس .

ثم قال :

ـ ان فونج فى السينما فما رأيك فى أن نقضى المساء كله معا فليس لدى ما أفعله الآن .

وبدا لى وكأنما كان هناك شـــخص من الخارج يوجهه لــكى يختار كلماته ليجردنى من كل عذر ممكن اتعلل به . وتابع كلامه :

ـ لماذا لاتذهب الى الشاليه ؟ فانا لم اذهب اليه منذ الليــلة

التى كنا فيها معا هناك والطعام جيد مثل طعام الطاحونة وهناك الموسيقى .

فقلت له :

ـ انى أفضل الا أتذكر تلك الليلة ،

فقـال :

ـ اننى آسف ، فانا فى بعض الأحيان أكون مغفلا يا توماس وما ر ـك فى عشاء صينى فى حى «شولون» ؟

فقلت له :

ـ لـكى تحصل على عشـاء ممتاز فى الحى الصينى يجب عليك أن تأمر به قبل ذهابك بعدة ساعات ، هل تخاف من مطعم الطاحونة يا بيل ؟ ان الاسلاك الشائكة محيطة به تماما وهنـاك البوليس باستمرار فوق «الكوبرى» ، وأنت لست مغفلا حتى تفـكر فى السير فى حى « داكو » .

فقـال :

ـ ان الأمر ليس كذلك وانمـا فكرت أن الأمر يكون مسـليا لو اسـتطعنا أن نطيل من سهرتنا .

وتحرك بيل فاوقع كاسه على الأرض واخذت ألتقط الشظايا واضعها فى المطفأة فقال بسرعة :

ـ حظ سعيد . أنا آسف يا توماس .

وأخذت التقط الشظايا واضعها فى المطفأة . وفكرنى الزجاج المتطاير بزجاجات الخمر المنسكبة فى البار وقت انفجـار القنبلة وقال بيل :

ـ ما رأيك يا توماس فيما قلت ؟ لقد حـذرت فونج .. اننى سأكون معك .

وقلت لنفسى : تبدو كلمة « حذرت » سيئة للغاية . والتقطت شظية من شظايا الكأس المكسورة وقلت :

ـ انى مرتبط بموعد فى الماجستك فلا أستطيع مقابلتك قبل التاسعة •

فقال بيل :

ـ حسنا • أعتقد أن على أن أعود الى المكتب وأنا أخاف دائما من أن يعطلونى فى المكتب •

وقلت لنفسى :

ـ انه ليس هناك ضرر فى اعطائه هذه الفرصة الوحيدة وقلت له :

ـ لا تبال اذا تأخرت عن الميعاد ـ ولو عطلوك فى المكتب فمر على هنا فى المنزل فسوف أعود فى الساعة العاشرة لو لم تتمكن من تناول العشاء معى وسوف أنتظرك •

فقال :

ـ سوف أخبرك بما قد يحدث •

فقلت :

ـ لا تهتم • ان كل ما عليك أن تحاول مقابلتى فى مطعم الطاحونة أو تقابلنى هنا فى المنزل •

وبذلك يمنح الفرصة للحياة مرة أخرى وقد تكتب له النجاة اذ قد يجد تلغرافا على المكتب يؤخره أو رسالة من الوزير المفوض يقتضى الأمر سرعة الرد عليها •

وقلت له :

ـ « اذهب الآن يا بيل ، فلدى أعمال أريد أن أنهيها •

• وشعرت بالتعب وأنا أسمعه يغادر المنزل وصوت مخالب كلبه على الأرض •

وعندما خرجت من المنزل لم أجد عربات للايجار بجوار المنزل وسرت على قدمى الى فندق « الماجستك » وأخذت أشاهد تفريغ قاذفات القنابل الأمريكية وكانت الشمس قد غربت والعمال يعملون على ضوء المصابيح الكشافة ولم تكن لدى فكرة عن محاولة خلق دليل لابعاد الشبهات عنى فى حالة قتله • ولكننى قلت له :

ـ انى ذاهب الى « الماجستك » .

وشعرت بكراهيتى لان المادى فى الكذب اكثـــر من اللازم وسمعت من يقـول :

ـ مساء الخير ، يافولر .

ولقـــد كان ويلكنز .

فقلت :

ـ مساء الخير

فقال :

ـ كيف حال ساقك ؟ .

فأجبته :

ـ انها لا تؤلمنى الآن .

فقال :

ـ هل أرسلت برقية بما حدث اليوم ؟

فقلت :

ـ لقد تركت الأمر لدومنجيز .

فقال :

ـ « آه » لقد قالوا لى : انك كنت هناك ساعة الانفجار .

ـ نعم . ولكن الجرائد مزدحمة بالأخبار والجـريدة لا تريد كثيرا من مثل هذه الأخبـــار .

فقال :

ـ ان المسألة أصبحت لا طعم لها . وكان الأجدر بك أن تكون حيا فى زمن الصحافة القديمة حين كانوا يرسلون بالبــالونات . وكان الصحفى يجد متسعا من الوقت لأن يكتب رسائل خيالية . بل كان يستطيع أن يحرر مقالا عن الذى حدث اليوم وكنت تستطيع فى رسالتك الى الجريدة أن تسهب فى وصف الفندق الضخم الذى تنزل فيه ورؤية قاذفات القنابل وتصف حلول الليل أما الآن فلم يعد فى استطاعتك وصف هذا حيث ان كل كلمة تكلفك الكثير عندما ترسلها بالبرق .

وترامى الى آذاننا صوت ضحكات وحطم أحـــدهم كاسا مثلما يحطم بيل كاسه وقال ويلكنز :

ـ ان المصابيح تضيء على وجوه نساء جميلات ورجال شجعان مرددا بذلك قول لورد بيرون فى قصيدته عن ليــلة معركة واترلو ثم قال :

ـ هل عندك شيء تعمله الليلة يا فولو ؟ هل ترغب في أن تتعشى معى ؟ »

فقلت له :

ـ انني سوف أتعشى فى الطاحونة »

فقال :

ـ أتمنى لك السعادة • ان جرانجر سوف يكون هناك ويجدر بهم أن يعلنوا عن الليالى التى يقيمها جرانجر لهؤلاء الذين يحبون الضجيج فى الحفلات »

وقلت له :

ـ مساء الخير ودخلت دار السينما المجاورة وشـــاهدت فيلما لايرول فلين أو ربما كان تيرون باور فانا لا استطيع التمييز بينهما عندما يرتديان « البنطلونات المحزقة » • وأخذ البطل « يتشقلب » على الحبـــال ويقفز من الشرفات ويركب الخيول عارية الظهر كل ذلك بالألوان الطبيعية • وأنقذ البطل فتاة وقتل خصمه وعاش حياة مملوءة بالمغامرات • وكان الفيلم من أفلام الصبيان وكنت أفضـــل رؤية فيلم أو مسرحية أشاهد فيها صورة أوديب بعينيه يقطران دما فمثل هذا الفيلم بالتأكيد يعطى المرء مرانا على مواجهة الحياة اليوم وما من حياة خالدة فالكل له ساعته فلقد حالف الحظ بيـــل فى « فات ديم » وفى الطـــريق من « تانين » ولكن الحظ لن يستمر وامامهم ســـاعتان فقط لكى يثبتوا أن الحظ معه قد انتهى وجلس بجوارى فى السينما جندى فرنسى وبجانبه فتاة وقد وضع يده على حجرها وحسدته على « بساطته » مما يدخل فى قلبه السعادة أو الشقاء أيا كان أحدهما وتركت السينما قبل أن ينتهى الفيلم واخذت عربة الى مطعم الطاحونة وكان المطعم محاطا بالأسلاك الشـــائكة

لحمايته من قذف القنابل اليدوية ورأيت جنديين فى نوبة حراسة فى نهاية «الكوبرى» ــ وقادنى صـــاحب المطعم الذى اكتنز بالشحم نتيجة اطعامه البرجوازى الشرقى خلال الاسلاك الشائكة الى داخل المطعم . وكان المكان تفوح فيه رائحة الزبد والأسماك المقلية بسبب الحر الخانق عند المساء وقلة وجود الهواء وقال لى :

ــ هل ستنضم الى حفلة المسيو جرانجر ؟

فقلت :

ــ لا . .

فقال :

ــ هل تريد منضدة لشخص واحد ؟

فجعلنى ذلك أفكر لأول مرة فى المستقبل والاجابة عن الاسئلة التى يمكن أن توجه الى وقلت له :

ــ أجل ! .

ــ لشخص واحد .

وقلت هذا كما لو كنت قد صحت بأعلى صوتى : ان بيل مات ــ وكان المطعم حجرة كبيرة واحدة والمدعوون الى حفـــلة جرانجر يحتلون منضدة فى أحد الأركان فى مؤخرة الحجرة وأعطانى صاحب المحل منضدة صغيرة بجوار الأسلاك الشائكة . ولم يكن للنوافــذ زجاج خوف تطاير شظاياه فى حالة قذف قنبلة يدوية وتعرفت على البعض ممن دعاهم جرانجر وانحنيت لهم قبل أن أجلس . أما جرانجر نفسه فقد أشاح عنى بوجهه . وكنت لم أره من شهور منـــذ تلك الليلة التى سقط فيها بيل فى حب فونج . وربما لاحظة قاسية قلتها فى ذلك المساء قد دخلت رأسه من خلال بخارالكحول . لأنه جلس وهو ينظر الى وقد قطب بين حاجبيه على حـــين جلس معه مدعووه يتضاحكون وكان معه صاحب فندق فى أحد البلاد الصغيرة فى الشمال وفتاة فرنسية لم أرها من قبل واثنان أو ثلاثة قد رأيتهما فى « البارات » قبل ذلك وكان يبدو أنها حفلة هادئة .

وأمرت ببعض الحلوى لأتسلى بها حتى أعطى بيل الوقت الكافى للحضور وأحيانا لاتسير الخطط وفق ما رسمت . وما دمت لم أشرع

فى تناول عشائى فان ذلك يحيى الأمل فى حضوره . ثم تعجبت من هذا الأمل وما أرتجيه منه هل أرتجى التوفيق لفرقة مقـــاومة التجسس التى يتبعها . أو أتمنى التوفيق لقنـــابل البلاستيك والجنرال لى . أو اتمنى انا وحدى من دون الناس جميعا نوعا من المعجزة وكم يكون الأمر سهلا لو قتلنا نحن ـ الاثنين ـ على الطريق فى « تان ين » . وجلست أتناول الحلوى لمدة عشرين دقيقة ثم أمرت بالعشاء لأن الساعة قد بلغت التاسعة والنصف وهو لن يحضر الآن ورغما عنى أخذت أنصت لأى شىء ؟ لصرخة . أو لطلقة رصــــاص أو لحركة من رجال البوليس فى الخارج . وعلى كل حال فان من المحتمل الا اسمع شيئا فقد اخذت حفلة جرانجر يتعـــالى أصوات أصحابها .

وكان صاحب المطعم الذى له صوت مقبول قد أخـــذ يغنى . وتطاير غطاء زجاجة شمبانيا وتابعه ثان وثالث ولكن جرانجر كان صامتا فقد جلس بعينيه المحمرتين يحدق عبر الغرفة . وســـاءلت نفسى : هل ستكون معركة بيننا فاننى لست « كفئا » لجرانجر .

وكان المدعورن يغنون وجلست بعد أن شبعت وفكرت لأول مرة رغما عنى فى أن فونج سالمة وفى أمان . وتذكرت كيف كان بيـل وهو جالس على الأرض فوق سطح البرج ينتظر رجـال الفيتمنة وهو يقول :

ـ انها تبدو غضة مثل الزهرة وليف لا ؟

أجبته :

ـ زهرة مسكينة .

وقلت لنفسى :

ـ انهـــا الآن وبعد موته لن ترى وطنه أو تتعلم أسرار لعبـــة الكانستا . وربمـــا لن تعرف « الأمان » والضمان « فى حيـــاتها . وتساءلت : بأى حق أقدرها بأقل من تقديرى للذين ماتوا فى الميدان هذا الصباح . وان الآلام لاتزيد بزيادة العدد فقد يعذب جســـد واحـــد يحوى كل الالام التى يمكن ان يشعر بها الكثيرون . ولقـــد

أصدرت حكمي كصحفي على أساس العدد وقد خنت بذلك القواعد التي سرت عليها . فلقد أصبحت مشتبكا في الصراع بين الطرفين مثلي مثل بيل وبدا لي ان تقدير أي شيء لن يبدو سهلا بعد الآن . ونظرت الى ساعتي فوجدتها العاشرة الا الربع وربما كانوا قد أمسكوا به . وربما أن أحدا ما يؤمن هو به قد قام بالعمل بدلا منه وجلس الآن في دار المفوضية يحاول حل شفرة احدى البرقيات . وسرعان ما أراه قادما يصعد في السلالم الى مسكني وقلت لنفسي :

لو جاء الليلة لقلت له كل شيء .

وقام جرانجر فجأة من فوق منضدته وجاء ناحيتي ولم ير حتى الكرسي الذي اعترض طريقه وكاد يسقط فاعتمد بيده على حافة المنضدة التي أجلس عليها وقال :

ـ فولر . تعال الخارج .

ـ فتبعته الى الخارج برغم أنني كنت في حالة لا تسمح لي بمقابلته ولكن في تلك اللحظة ما كنت أبالي لو ضربني حتى يغمى على لأننا نحن البشر لنا طرق قليلة نعبر بها عن شعورنا بالذنب .

واستند جرانجر على حافة « الكوبري » وأخذ رجلا البوليس الواقفان للحراسة يرقباننا من بعد وقال :

ـ يجب أن أتكلم معك يا فولر ؟.

فاقتربت منه في متناول يده وانتظرت فلم يتحرك وكان يبدو لي أنه مثال لكل ما أكرهه في أمريكا فهو في نظري ذو مظهر غير حسن مثله في ذلك مثل تمثال الحرية وكذلك لايعبر عن شيء كالتمثال تماما وقال دون أن يتحرك :

ـ أنت تعتقد أنني مهرج . أنت مخطيء في هذا .

فقلت له :

ـ ماذا تريد يا جرانجر ؟.

فقال :

ـ يجب على أن أتكلم معك يا فولر فأنا لا أريد أن أجلس مع هذه الضفادع الليلة . وأنا لا احبك يا فولر ولكنك تتكلم الانجليزية، نوعا ما من الانجليزية .

واعتمد بجسده الضخم غير المحدود المعالم تحت الضوء الخافت وأردت أن أعرف ماذا يريد .

فقلت :

ـ ماذا تريد يا جرانجر ؟

فقال :

ـ أنا لا أعرف لماذا يحبك بيل ، ربما لأنه من بوستن ، ولكنني من « بتسبرج » وأنا فخور بهذا .

فقلت له :

ـ ولماذا لا تكون فخورا ؟

فقال :

ـ هانتذا ثانية تتكلم بتعال ، انكم معشر الانجليز تعتقـدون انكم خير من غيركم ، وأنت تعتقد أنك تعرف كل شيء .

فقلت له :

ـ سعدت مساء يا جرانجر ، ان لدى موعدا .

فقال :

ـ لاتذهب يا فولر ، أليس لديك قلب ؟ وأنا لاأستطيع الكلام مع تلك الضفادع .

فقلت له :

ـ انك مخمور .

فأجاب :

ـ لقد شربت كأسين من الشمبانيا . هذا كل ماهنالك : أتكون مخمورا لو كنت فى مكانى ؟ ان على ان أذهب الى الشمال .

فقلت له :

ـ وأى ضرر فى هذا ؟ »

فقال :

ـ أنا لم اقل لك .. هل ذكرت لك ..؟ وأعتقد أن الكل يعلمون .. لقد تلقيت برقية اليوم من زوجتى .

فقلت :

ـ نعم ..

فتابع كلامه :

ـ لقد أصيب ابنى بشلل الأطفال وكانت اصابته شديدة .

فقلت :

ـ أنا آسف لذلك .

فقال :

ـ لاعليك .. فانه ليس ابنك أ..

فقلت :

ـ الا تستطيع أن تعود الى الوطن بالطائرة ؟ »

فقال :

ـ لا استطيع فانهم يريدون مقـــالا عن عملية حربية ملعونة بالقرب من هانوى . وكونوللى مساعدى مريض .

فقلت :

ـ انا آسف يا جرانجر . كان بودى لو استطعت مساعدتك »

فقال :

ـ ان الليلة هى ليلة عيد ميلاد ابنى وسوف يبلغ الثامنة فى العاشرة والنصف الليلة حسب التوقيت المحلى فى أمريكا . ولهـذا السبب أقمت حفلة الشمبانيا هذه قبل أن تصل الى البرقية . وكان على أن أقول لشخص ما أشعر به وانا لا أستطيع أن اصارح هؤلاء الضفادع بشعورى .

فقلت له :

ـ انهم يستطيعون أن يفعلوا الكثير لمعالجة الشلل هذه الايام».
فقال :

ـ أنا لا أبالى اذا أصبح شعدا بانولو بشرط أن يعيش • ولو كنت أنا الذى أصيب بهذا المرض ما أصبحت شيئا • ولـكنه يمتاز بذكاء • هل تعرف ماذا كنت أفعـــل على حين كان هؤلاء الملاعين يغنون ؟ • لقـــد كنت أصلى • وظننت أنه اذا أراد الله أن يقبض روحا فانه يستطيع أن يقبض روحي ويبقى ابنى ».

فقلت له :

ـ هل تعتقد فى الله اذن ؟

فقال :

ـ بودى لو كنت مؤمنا •

ومر بيده على وجهه كما لو كان رأسه يؤلمه من صداع ولكن حركة يده كانت لاخفاء الحقيقة وهى أنه كان يمســح الدموع من عينيه . فقلت له :

ـ لو كنت فى مكانك لجعلت نفسى مخمورا •

فقال :

ـ لا • يجب أن أظل متيقظا ، فأنا لا أريد أن أفكر بعد ذلك •» انتى كنت سكران ليلة موت ابنى وزوجتى لا تستطيع أن تشرب » هل تستطيع أن تسكر هى الأخرى لتنسى ؟

فقلت له :

ـ الا تستطيع أن تخاطب الجريدة التى تعمل معها ؟ •

فقال :

ـ ان كونوللى ليس فى الحقيقـــة مريضا • لقد ســـافر الى سنغافورة وراء فتـــاة يحبها • وعلى أن « أغطيه » والا فصلتـــه الجريدة •

وجمع جرانجر جسده المكوم وقال :

ـ آسفَ اذا عطلتك يا فـولر ، ولكن كان يجب أن أتـكلم مع شخص ما • يجب على أن أعود الآن الى المدعوين • وانه من المضحك أن أتكلم معك وأنت تكرهنى •

فقلت له :

ـ أنا على استعداد للقيام بالرحـلة بدلا منك ، وأستطيع أن أدعى أنها من عمل كونوللى •

فقال :

ـ لا • لن تستطيع فان لهجتك سوف تكشف الموضوع •

فقلت له :

ـ أنا لا أكرهك يا جرانجر ولكنى كنت أعمى عن ملاحظة بعض الأشياء •

فقال :

ـ آه • انت وأنا كنا كالكلب والقطة ولكن أشكرك على كل حال على عطفك •

وساءلت نفسى : هل أنا مختلف عن بيل ؟ أيجب على أن أدفع بقدمى فى خضم الحياة قبل ان أرى الألم • ودخل جرانجر المطعم وسمعت الأصوات ترتفع ابتهاجا بمقدمه ولم يكن حولى أحد ثم سرت فى الشارع بدون أمل وهناك التقيت بفوبج •

وسألتنى لونج :

ـ هل زارك مسيو فيجو ؟

فقلت :

ـ نعم . لقد تركنى منذ ربع ساعة هل كان الفيلم حسنا ؟

وكانت قد اخذت الصينية فى غرفة النوم ، وقالت :

ـ لقد كان الفيلم محزنا للغاية ، ولكن الألوان الطبيعية كانت جميلة . ما الذى كان يريده مسيو فيجو ؟

فأجبت :

ـ كان يريد ان يسألنى بضعة أسئلة .

فقالت :

ـ عن ماذا ؟

فأجبتها :

ـ عن هذا وذاك . وانا لا اعتقد أنه سيضايقنى مرة أخرى .

فقالت :

ـ انى احب الأفلام ذات النهاية السعيدة . هل انت مستعد للشرب ؟

فقلت لها وانا مستلق على السرير :

ـ نعم انا مستعد .

فقالت :

ـ لقد قطعوا رأس الفتاة .

فقلت :

ـ أى شىء غريب هذا الذى فعلوه ؟

فقالت :

ـ ان ذلك كان زمن الثورة الفرنسية .

فقلت :

ـ آه . فيلم تاريخى . لقد فهمت .

فقالت :

ـ لقد كان الفيلم محزنا على أى حال .

فقلت :

ـ أنا لا أهتم كثيرا بما يحدث للناس فى الأفلام التاريخية .

فقالت :

ـ وحبيبها . لقد عاد ثانية الى غرفته وكان يائسا فكتب أغنية قالت ترى أنه كان شاعرا وسرعان ما أخذ الناس يغنونهـا حتى أولئك الذين قطعوا رأس حبيبته . وكانت الأغنية هى المارسلييز .

فقلت :

ـ لايبدو أنها تاريخيا جدا .

فتابعت كلامها قائلة :

ـ لقد وقف هناك لدى الجموع التى أخـذت تغنى . وكان شعوره مريرا وعندما كان يبتسم كنت تستطيع ان تشعر انه اكثر مرارة وانه يفكر فيها . لقد بكيت كثيرا وكذلك بكت أختى .

فقلت :

ـ أختك تبكى ؟ أنا لا أصدق هذا .

فقالت :

ـ انها شديدة الحساسية . وكان مستر جرانجـر السخيف هناك . وكان مخمورا وأخـذ يضحك فى أثنـاء الفيلم . برغم أن الفيلم لم يكن مضحكا بالمرة . فلقد كان محزنا .

فقلت :

ـ أنا لا الومه . فان لديه شيئا يحتفل به فولده قد خرج من مرحلة الخطر . فقد سمعت ذلك فى فندق الكونتننتال . وانا احب النهايات الجميلة كذلك .

وبعد أن دخنت تمددت على ظهرى ، وعنقى فوق المخدة الجلدية وأرحت يدى فى حجر فونج وسالتها :

ـ هل أنت سعيدة ؟

فقالت بعدم اكتراث :

ـ بالطبع .

ولم أكن استحق جوابا أحسن من هذا . وكذبت وقلت :

ـ لقد عادت الأمور الى ما كانت عليه منذ سنة .

فأجابت :

ـ نعم .

فقلت :

ـ انك لم تشترى وشاحا جديدا منذ مدة - لماذا لا تقومين بشراء واحد لى الغد ؟

فقالت :

ـ ان الغد يوم عيد .

فقلت :

ـ نعم . بالطبع . لقد نسيت ذلك .

وقالت فونج :

ـ انك لم تفتح البرقية .

فقلت لها :

ـ لا ، لم افتحها لقد نسيت ذلك وانا لا احب ان افكر فى العمل الليلة ـ اذكرى لى ما شاهدته فى الفيلم .

فقالت :

ـ حسنا . ان حبيب الفتاة حاول ان ينقذها من السجن فى ملابس صبى وقبعة رجل كالتى يلبسها حراس السجن . ولكن

بينما كانت تجتاز بوابة السجن سقط شعرها فصاح الحراس :
ـ ارستقراطية ـ أرستقراطية ٠

ـ وأعتقدان هذه غلطة فى القصة . كان يجب عليهم أن يتركوها تهرب لتتزوج حبيبها وبذلك يستطيع الاثنان أن يجمعا مبلغا كبيرا من النقود عن طريق الأغنية وبذلك يستطيعان أن يذهبا الى أمريكا أو انجلترا ٠

وأضافت كلمة « انجلترا » بنوع اعتقدت هى أن فيه خبثا منها وذكاء فقلت :

ـ يحسن بى أن أقرأ التلغراف ٠ وأضرع الى الله الا يكون على أن أسافر الى الشمال فى الغد ٠ فأنا أريد أن أبقى معك هادئا ٠

وجاءت بالتلغراف من بين أوانى الكريم وأدوات الزينة وأعطتنى اياه وفتحته وقرأت فيه :

« لقد فكرت فيما جاء بخطابك ثانية ٠ وأنا أفعل ما كنت تتمناه وطلبت من المحامى أن يعد اجراءات الطلاق على أساس الهجر وليرعك الله » ٠ المحبة : هيلين » :

وقالت فونج :

ـ هل عليك أن تسافر فى الغد ؟

فقلت :

ـ لا ٠ ليس على أن أذهب ٠ خذى اقرئيه ـ هاهى ذى النهاية السعيدة بالنسبة لك ٠ فقفزت من فوق السرير وقالت :

ـ ان هذا جميل جدا يجب أن أذهب وأقول لأختى ، فانها سوف تكون مسرورة وسوف أقول لها هل تعرفين من أنا ؟ أنا زوجة مسيو فولر الثانية .

وكان أمامى على رف الكتب كتاب هاردنج « مسئولية الغرب » ورأيت فيه صورة بيل وهو رجل شاب ذو شعر قصير وبجواره كلب أسود عند موطىء قدميه ٠

وقلت لفونج :
ـ هل تفتقدينه كثيرا ؟
فقالت :
ـ من ؟
فقلت :
ـ بيل .
وكان غريبا الا أستعمل اسمه الأول حتى مع فونج .
وقالت :
ـ هل يمكنني أن أذهب اذا سمحت ؟ فان أختي سوف تذهل.
فقلت :
ـ لقد نطقت باسمه مرة وأنت نائمة .
فقالت :
ـ أنا لا أتذكر أبدا أحلامي .
فقلت :
ـ كانت هناك أشياء كثيرة تستطيعان أن تعملاها ، فانه كان

فقالت :
ـ انك لست بعجوز .
فقلت :
وناطحات السحاب ومبنى الامبابر ستيت .
فقالت بتردد «بسيط» :
ـ اني أريد أن أرى انجلترا .
فقلت لها :
ـ ان انجلترا ليست في عظمة أمريكا . وأنا آسف يا فونج .
فقالت :

ـ لأى شيء تتأسف ؟ ان البرقية عجيبة . وأختى ...
فقلت :

ـ نعم . اذهبى وقولى لأختك . ولكن قبلينى اولا .
وقبلتنى بفمها المضطرب على وجهى ثم ذهبت لأختها .

واستمدت ذكرى اليوم الاول وبيل جالس بجوارى فى الكونتننتال وعيناه ناظرتان الى المحل عبر الشارع . لقد سار كل شيء فى مصلحتى منذ ان مات ولكن طالما تمنيت لو أن شخصا موجودا الآن لكى استطيع أن أقول له انى نادم على ما فعلت .

« انتهى »


الدار القومية للطباعة والنشر

الدار القومية للطباعة والنشر

مركز الإشعاع الثقافي
في العالم العربي
من القاهرة

مكتبات الدار

- نيويورك
- لندن
- الجزائر
- بيروت
- طرابلس
- بغداد
- الخرطوم
- الاسكندرية
- القاهرة

يصدر عنها











مذاهب وشخصيات | من الشرق والغرب | كتب سياسية

اخترنا للجندي | اخترنا للطالب

دراسات اشتراكية | رسائل جامعية





Der Schreiber